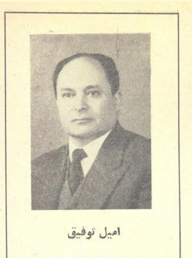

اميل توفيق

في نشأة العلم والطريقة العلمية

بقلم اميل توفيق

* * *

كيف تمايز العلم

كان الانسان القديم ، في اي موقف اجتماعي ، وخاصة في الازمات الاجتماعية ، يسلك بكلياته . ونعني بالازمات الاجتماعية تلك المواقف التي تقترن بالميلاد والوفاة – واحتفالات المراهقة – او بالطقوس الخاصة بزيادةالمحصولات – او بالطقوس الدينية للصيد ، او بالحفلات الطوطمية التعبدية . ونعني بالسلوك الكلي السلوك الذي تندمج فيه نواحي الحياة المختلفة : العقلية والاجتماعية والدينية . فقد كانت الحقيقة عند الانسان البدائي تندمج في الخيال ، والخيال عنده يندمج في الحقيقة .

فعندما كان يخرج للصيد ، كانت الحقائق الملموسة تختلط بالسحر وبالرقي والتعاويذ . وكان تفكيره ايحائيا ، وكان التفكير السحري يطغى على تصرفاته بحيث انه كان يربط خطأ بين الاسباب والنتائج كما يؤكد ذلك السير فريزر في كتابه « الغصن الذهبي » فهناك سحر يبنى على ان الشبيه يستدعي الشبيه ، وهناك سحر بالاقتران ، وهناك سحر يقوم على ان للالفاظ قوة خارقة كالاسم او كالمراة او كالدم وغيرها .

وبعد الاف من السنين ، امكنت خبرة الانسان في المجتمع ان تحلل هذا السلوك الكلي الى عناصر متمايزة ، منها العقلية ، ومنها الاجتماعية ، ومنها الاقتصادية الخ وان لم يكن هذا التمايز تاما حتى يومنا هذا .

والتمايز العقلي قد سار بالانسان من الناحية الذاتية الى الناحية الموضوعية . واذا اخذنا بالنظرية التطورية للمجتمع نقول ان الوظائف الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والدينية كانت متداخلة وغير متمايزة وكانت جميعها تقوم بها القبيلة . والتطور سار بها من الاوسع الى الواسع ثم الى الضيق فالاضيق ، ونعني بذلك انه سار من القبيلة الى العشيرة ثم الى الاسرة . ثم في المجتمع الحديث تطورت هذه الوظائف بحيث اخذت تتمايز فاختصت المدرسة بالتربية ، والمؤسسات الدينية بوظائفها – وتكونت الدولة ، وهذه انشأت تنظيمات تعنى بالنواحي القانونية والاقتصادية والصحية وما اليها .

وقد كانت اهم وسيلة للتطور الانساني هي اللغة . فان استخدام اللغة ورموزها وما تحمله الرموز من معاني ومفاهيم قد جعل الناس تتبادل الافكار والمعاني وجعل الاتصال الاجتماعي ممكنا الى درجة من الوعي اخذت تنمو جنبا الى جنب بنمو اللغة ذاتها ، بل بنمو المجتمع في سائر الوظائف .

على ان هذا التمايز في المشاهدة والحكم والتكيف مع البيئة باستغلال مواردها وتجريب خاماتها لم يكن خاليا من الدوافع اللاشعورية . فقد كانت الدوافع العقلية ترتبط بدوافع هامة تدفع الانسان للحياة بحماسها الدافق فاما انه كان مدفوعا للحياة الآخرة . او مدفوعا بدوافع الخوف من الآلهة او الخضوع لها او مقاومة بطشها .. او بدافع فكري عن خوارق الطبيعة . كان لهذه الدوافع اكبر الاثر في كشف الانسان لحقائق كثيرة خدمت العلم حتى يومنا هذا . يقول البروفسور اليوت سميث : ان الناس في قبيلة ايبان عندما يزمعون عقد صلح مع قبيلة اخرى ، كانوا يلجأون الى عمل طقس معين يتبينون منه اذا طار صقر هل سيواتيهم الحظ أم لا . وتسيطر على سكان جزيرة الملايو عقيدة فحواها ان صحتهم رهن بظهور كائنات في صورة تماسيح هي التي تكسب حقول الارز خصبا ونماء . كما ان بعضهم يعتقد بخواص سحرية لبعض النباتات .

وفي سبيل اشباع تلك الدوافع اختلطت مشاهدات البدائيين وكشوفهم بالطقوس وبالخرافات . ولكن قوة تلك الدوافع كان لها اعظم الاثر في ايقاد حماسهم والوصول بهم الى امثال تلك المعلومات القيمة التي استطاعوا ان يطبقوها .

ففي مصر العريقة القدم ، كانت غايات الناس المعيشية تمتزج بالغاية الدينية العظمى ، ومن هنا استطاعوا ان يصلوا الى معلومات نظرية وتطبيقية ، عالية في الرياضة والهندسة والفلك والطب والتخطيط والكيمياء . كما انهم توصلوا الى زرع الحبوب والى استئناس الحيوان .

وفي البقعة المسماة ميزوبوتاميا (١) ومنها بابل القديمة

وفارس] توصل الناس ايضا الى البناء والى صناعة الفخار والى بناء المعابد . كما انهم كانوا من اوائل الناس الذين استخدموا طريقة للعد ، ومنها استعملوا النقود .

على ان العلوم عند المصريين والبابليين لم تكن امرا شعبيا مشاعا ، بل كانت وقفا على السحرة او الكهنة من رجال الدين او من رجال القصور الملكية . كان العلم اذن مقترنا بالسحر والشعوذة . كما كان في خدمة الملوك .

الطريقة العلمية

ينبغي ان نفهم ان الطريقة العلمية تتضمن عمليتين هما الاستقراء (٢) . والاستنباط (٣) فالاستقراء يتضمن المشاهدة ثم المقارنة ثم التجريد (٤) ومعنى ذلك اننا نخضع الاحداث الحقيقية الخاصة للمشاهدة ثم للمقارنة (او للتجريب) ونجرد منها حقائق اولية توصلنا الى قاعدة او الى قانون او الى تعميم (٥) . وهذا هو الجزء الاول من الطريقة اما الجزء الثاني ، او الاستنباط، فيتضمن البرهنة على صحة هذا التعميم لنصل مرة أخرى الى الاحداث الحقيقية الخاصة . وبذلك تكون الطريقة العلمية مستوفاة . فالاستقراء في الحقيقة يتضمن مشاهدة وقائع معينة خاصة ، تفترض وجود علاقة بينها . وهذا الافتراض ان صح ، صارت العلاقة قاعدة عامة او قانونا او تعميما . ومن جملة التعميمات قد نصل كذلك الى قانون اعم . اما الاستنباط فيسير في عكس اتجاه الاستقرار اي يسير من التعميمات لنصل الى الوقائع او الحقائق الخاصة .

وهناك شأن هام في الطريقة العلمية وهو مسألة (الخطأ المحتمل) في القراءات التي يقرؤها العالم ، فهناك تقريب للقراءة وينبغي ان يصحح باضافة هذا الخطأ المحتمل .

كما ان التعميمات التي نصل اليها ليست بالضرورة نهائية او حاسمة فهي صالحة بالنسبة للشروط التي تم فيها التجريب ومن الجائز جدا ان يعدل قانون ما الى صورة اعلى او اعم او اشمل . وهذا فعلا ما حدث بالنسبة لقانون الجاذبية الارضية لنيوتن الذي عدلته معادلة اينشتين . كما ان النظرية العلمية التي نصل اليها انما تعد نموذجا علميا مقبولا لانها تصلح للتفسير او للتطبيق ومع ذلك فمن الجائز ان تصحح او تعدل في ضوء التقدم العلمي والنظريات الاخرى ومثال ذلك نظرية بوهر (٦) في تركيب الذرة فما تزال قابلة للتعديل .

المراحل الباكرة في تطور العلم

اولا ــ العلم عند الاغريق :

لقد علمنا ان الطريقة العلمية تتضمن الاستقراء والاستنباط . ونحن في المعمل غالبا نطبق الاستقراء لنصل الى التعميمات . ولكن الطريقة العلمية لا تستوفي غايتها الا بتحقيق الاستنباط اي بالبرهنة على صحة هذه التعميمات . والاغريق القدامى لم يكونوا ميالين الى التجريب (٧) وهو اساس الاستقراء ، بل كانوا شغوفين بالاستنباط . اي كانوا يستخدمون الشق الثاني للطريقة العلمية ولكن بمنطق بعيد عن منطق التجريب ، هو منطق التأمل . وبعبارة اخرى كانوا تواقين الى ان يبرهنوا على صحة تعميمات مألوفة لديهم من الاصل ، تعميمات اما ان تكون مستقاة من الكتب المقدسة القديمة عندهم ، او من الفلاسفة المشهورين من امثال افلاطون وارسطو الذين وضعوا فلسفات ثابتة وقواعد جامدة ونظما لا تتغير وآمن بها الناس كما شرحوها . واتخذوها قواعد اساسية او دلالات فكرية او اطارات عقلية يقيسون بها مختلف الاراء ، او يعدلون بواسطتها مختلف النظرات والافكار .

ولذلك فقد اندثر كثير من العلم الاغريقي في حين ان اللاهوت او القانون قد بقي منه جله ، لانه لم يكن معتمدا على التجريب ، لقد كان علماؤهم يعتبرون الكواكب ذات خواص الهية . اما الحقائق الرياضية التي توصلوا اليها كالعد والاعداد الحسابية ، فكان يكمن وراءها دافع لاستكناه نظام الكون . واذا عد ارسطو عالما ، فقد مزج العلم بالفلسفة . اما العالم الحقيقي فقد كان ارشميدس فقد ابتدع اساليب ميكانيكية في الدفاع عن مدينة سيراكوز ضد الرومان . ومع ان ارشميدس كان عقلا علميا بارعا ، فقد كان هو ايضا يقتصر على تطبيق عملية الاستنباط دون الاستقراء . ذلك انه كان يستند الى بديهيات اقليدس الهندسية اما الشيء الوحيد الذي توصل اليه بطريقة الاستقراء هو (٨) (قاعدة ارشميدس) وكتب في ذلك كتابا هو « الاجسام الطافية » وجاء كشفه ذلك في مناسبة استعانة ملكه لان يختبر له نقاء التاج الذهني .

ثانيا ــ العلم عند العرب :

كان العرب اكثر تجريبامن الاغريق ، وخاصة في الكيمياء والطب . ومن الامثلة البارزة في تاريخ العلم جابر بن حيان والرازي وابن سينا . كان يدفع العرب في البحث والتجريب دافع الكشف عن (حجر الفلاسفة) او (اكسير الحياة) كما كانوا يأملون ايضا في تحويل المعادن الى ذهب . وفي سبيل هذين الغرضين استطاعوا بالتجربة ان يتوصلوا الى حقائق كيميائية هامة نقلها الغرب عنهم . ومن اشهر هؤلاء الناقلين لثقافة العرب هو روجر باكون . اما الحسن بن الهيثم مؤسس علم البصريات فيعد من العلماء الذين سجلوا قصب السبق في استخدام الاسلوب العلمي المبني على الاستقراء والاستنباط معا . ويعد كذلك رائدا لعلم الضوء في مستهل القرن الحادي عشر . كما

---

(1) Mesopotamia (2) Induction (3) Deduction
(4) Abstraction (5) Generalization (6) Bohr
(7) Experimentation (8) Floating Bodies
(9) Montaigne (10) Leonardo da Vinci

References :
(1) The Scientific Outlook — Bertrand Russel.
(2) The Dance of Life — Havellock Ellis.

ماضي الليالي

كيف هانت ذكرياتي — انني ما زلت حيرى
ان نسيت الامس اني — برحيق الامس سكرى

زد كما شئت جحودا — وأنا أزداد ودا
في دمي الاخلاص يسري — رغم ما تبديه صدا

سوف لا ألقاك لكن — في فؤادي منك ذكرى
قد كتمت الحب في قلـ — ـبي وما أضمرت غدرا

انا كلي كبرياء — انما حبي أكبر
فأنا بالحب اسمو — وعلى هجرك اصبر

كم خطبت الامس ودي — وتعذبت ببعدي
وسهرت الليل سهدا — صابرا ترقب ردي

فظننت الدمع في عينيك حبا وحنينا
يا لأيامي التي ضيعت شكا وظنونا

جهلت عيناي ما تخفيه من زيف الشعور
فسرى الحب حنينا — في الحنايا والضمير

ثم غرتك الاماني — وظلال من حناني
فتجافيت عهودي — وتناسيت مكاني

ما الذي علمك الهجر — فآثرت بعادي
فغدا كاسي مرا — وغدا الجمر وسادي

كنت في عيني اطيافا — وأحلاما جميله
كنت في أذني انغاما — وألحانا أصيله

انني أحيا بأمسي — وبأحلى ذكرياتي
انها عمري الذي ضاع — وأحلام حياتي

تـه كما شئت فاني — لست بالهجر ابالي
وكفاني منك ذكرى — خلدت ماضي الليالي

مصر الجديدة — روحية القليني

نعد نحن نيوتن رائدا لعلم الميكانيكا في القرن السابع عشر .

ثالثا ـ العلم في اوروبة :

عندما اختفى النظام المدرسي قبل عصر النهضة ظهرت حركة للحرية الفكرية . واتسمت هذه الحرية في كرهها للقواعد العامة ، او التعميمات ، او الكليات ، ويمثل هذه الحركة مونتيني (٩) الذي لم يكن يعنى بالنظم الفكرية ، او الاراء التي تنتظم في قواعد او انظمة او تعميمات بل كان يحبذ التأمل الحر الذي لا يستند الى قواعد معينة وبذلك شجع كل راي شاذ او غير مألوف ، دون ان يستند الى منطق منظم . وهذه الحركة وان عدت تحطيما لالتزام الاسلوب العلمي ، هي من ناحية اخرى تحطم الالتزام لقواعد ثابتة ، وتشيع حرية التفكير التي كان يمكن ان تعد نقطة الانطلاق التجريبي .

رابعا ـ العلم في عصر النهضة الاوروبية :

لم تطل تلك الحرية الفكرية عندما ظهر عالم عصر النهضة والفنان المشهور ليوناردو دافنسي (١٠) الذي كان يغمره شعور دافق بحب الطبيعة ، فجاء انتاجه مزيجا من العلم والفن ، كانت لوحاته البارعة دراسة علمية لصور من صور الطبيعة ، كما جاءت كتاباته في مشكلات علم الفيزياء مشربة بروح الفن الخالص .

كان ليوناردو يمثل المعرفةبوجهيها الادراكي والوجداني، اذ كان مدفوعا بعشق الطبيعة الكونية وظاهراتها ، كما كان يمثل في نفس الوقت قوة الخيال المبدعة التي تعكس تلك المعرفة في صور فنية رائعة .

وله كذلك كتابات علمية تضمنت مشكلات عديدة ، بل واشتملت على افكار لامعة تعد تنبؤات لمكتشفات لاحقة . ومع ذلك فان تأثير ليوناردو لا يتجاوز التأمل الفلسفي المبني على النظرة الجدية .

أما الطريقة العلمية فلم يظهر لها كيان مستقل [عدا ما عرف من تطبيق لها عند الحسن بن الهيثم] الا على يدي جاليليو ثم كبلر وكوبرنيكس . ومن بعدهم نيوتن العظيم .

بورسودان — اميل توفيق

أحلام

مَرَرْتَ بها سَكْرى بأنفاس نتْنها ... ولم تكُ إلاَّ بالازاهير تحْلَمُ
خجلتُ بأحلامي وأغضيْتُ عندما ... نظَرْتُ الى أحلامها تتبرْعَمُ
أيحلمُ نتْنُ الارض بالعطر والشذا ... وبالعُهر فينا يحلَمُ اللَّحْمُ والدم ؟!
فلا تعجبَنْ ان تبسم الشمس في الضحى ... لقاذورةٍ في قلبها الزهر يبسمُ
هي الشمس تدري ان جسمك في الثرى ... قُمامةُ أقذارٍ وقلبُكَ قمْقُمُ

* * *

عَجبْتُ لذي الحرمان يشكو مذاقَهُ ... فهلْ كان بالاحلام لولاه ينْعَمُ ؟!
تعلَّمَ قلبي كيف يحلمُ عندما ... رأى كيف أشقى في جهادي وأُحْرَمُ
تذوَّق ثغري غيرَ ما انا شاربٌ ... على شفتي شهْدٌ وفي الكأس علْقَمُ
وكم حلِمَتْ بالخمر نفسي فانتشَتْ ... وفي راحتيها من جنى الكرم حصرم
سأندبُ أحلامي اذا ما تجسَّمتْ ... ومن لي بأن تبقَى ولا تتجسَّمُ ؟!
أتسألني عنها ؟ حِسَانٌ جميعُها ... وأحسنُها الحلم الذي هو مبْهَمُ
سأبقي عليه مُشْفِقاً لا أصوغُهُ ... لاني اذا ما صغتُهُ يتحطَّمُ

* * *

هي النفسُ في دنياكَ تسأمُ ذاتها ... فتأوي الى احلامها حين تسأمُ
تضيقُ بها الدنيا فتحْلَمُ بالمدى ... وتحْلم فيها بالشفا حين تُسْقَمُ
ولا تعْجَبَنْ ان يحْلَمَ اليأسُ بالمنى ... هو الموتُ في دنياكَ بالخلد يَحْلَمُ !

فارس سعد



اميلي نصر الله

« طيور ايلول » والصنيع الروائي

بقلم الدكتور علي سعد

كان لاسبوع الكتاب في لبنان ، ولجهود جمعية اصدقاء الكتاب في تشجيع المؤلفين والادباء والشعراء الفضل الكبير في تحريك فضول القراء وتوجيه عناياتهم نحو الجديد في عالم التأليف والكتابة عندنا .

وقد ادى توزيع الجوائز ، هذه السنة ، الى اثارةجدل كبير حول نصيب اللجان التحكيمية من التوفيق ومدى اقترابها من سلامة النظرة في اختيار الكتب التي رشحتها لنيل الجوائز .

ولعل منح جائزة الرواية مناصفة لروايتي « طيور ايلول » و « اصابعنا التي تحترق » كان اكثر المجالات تعرضا للنقاش ، ان لم نقل للنقد . وليس هذا بمستغرب فالرواية بطبيعتها اكثر الفنون الادبية استئثارا باهتمام الجمهور الواسع . والروايتان اللتان منحتا الجائزة قد اثارتا ، بالذات ، المساجلات في داخل اللجنة التحكيمية وعند القراء والنقاد . وهذه المساجلات قد طرحت قضايا اساسية حول الفن الروائي وحدوده وعلاقاته. فالكثيرون من الكتاب والنقاد اثاروا ، لمناسبة البحث رواية «اصابعنا التي تحترق» ، قضية الحدود التي يمكن ان تقوم بين فن الرواية وفن السيرة او المذكرات ، وحق الروائي او الكاتب في استعارة الاحداث الواقعية وحياة الانـاس الحقيقيين الذين يعيشون حوله وفي التصرف بمصائرهم وبافكارهم وبرسم ملامحهم وفقا لمتطلبات الصورة التـي يريد ان يضيفها على البطل المركزي لقصته ، عندما يكون هذا البطل هو كاتب الرواية بالذات ، وعنـدما تحصر الملامح البطولية في هذا البطل ـــ المؤلف وتنفى عن جميع الذين يعيشون معه او حوله . اما في ما يتعلق برواية « طيور ايلول » فقـد اثيرت قضية الحدود بـين العمل الروائي والعمل الشعري ، وخاصة قضية عنصر البنـاء القصصي في الرواية .

وقد اخذ الكثيرون على رواية اميلي نصرالله ضعف العنصر الروائي فيها واعتبروها اقرب الى العمل الشعري منها الى الصنيع الروائي الحقيقي .

وفي هذه العجالة ، نحن سوف نكتفي بالبحث عـن قيمة هذا الحكم على « طيور ايلول » وبابراز بعض الملامح المميزة والمعاني الفريدة التي تتكشف عنها دراسة هـذا الاثر .

ونحن نبادر الى القول بان « طيور ايلول » تزخر فعلا بمد شعري جارف . ولكننا نعتقد انه ليس في ذلك ما يضير طبيعتها الروائية . والا لجاز لنا ان ننفي ، مـن التراث الروائي بسبب النبض الشعري الدافق ، رواية « الاجنحة المتكسرة » وحكايات الفونس دوديه و تشيكوف و قصص جان جيونو و ستيفان زويج و جوركي و د. هـ. لورنس و دوستويفسكي .

ان في « طيور ايلول » اكداسا من اللوحات الجميلة في تصوير الطبيعة والنفس والوجوه الانسانية . وفيها سيل من الرعشات العميقة فـي التعبير عـن اللحظات الانفعالية مما لا يخلو من مثله اي من الآثار الادبية الكبيرة، حتى اكثرها واقعية وموضوعية .

ومما يزيد في قوة اسر هذا المد الشعري المتبجس في كل ناحية من رواية « طيور ايلول » وفي سلطانه على نفس القارىء انه ينبثق من معنى الحب والحنين الـذي يبدو في اساس كل العلاقات بين الناس وبين الانسـان والاشياء التي تتحدث عنها الرواية .

ففي الصفحة ١٠٧ مثلا ، ورد هذا المقطع :

« وكان حنو غريب يختلج بين اضلعي في تلكاللحظات النادرة ، حنو يشدني الى الارض فاندفع لاسجد فوق التراب احس لهاث الارض فوق جسدي وحصاها تنغرز في ركبتي ... »

وهذا التعلق بالارض ، المصدر الاول للحياة والملاذ الاخير

للانسان ، والذي يذكرنا بموقف « سكارليت اوهارا » ، بطلة رواية « ذهب مع الريح » ، هو لون من الوان الحنين العتي الذي يشد المؤلفة والاشخاص من الذين تستعين بهم المؤلفة الى كل مظاهر الوجود . الم يرد في الرواية هذا القول :

« احب ان اعيش يا امي ... انها نعمة كبرى ان نحيا ... ان يكون لنا هذه الحواس تصلنا بالوجود . »

واواصر الحب التي تنسجها الرواية في كل صفحة لا تضم فقط الناس فيما بينهم ، وانما ايضا تجمع الانسان الى كل الاشياء التي تقع في متناول حواسه وادراكه والى المعاني التي تنبثق من حياة الناس والاشياء : الى الحياة والموت والربيع والفصول والمواسم والى الماضي وذكرياته والمستقبل ووعوده وامنياته . ان حب المؤلفة يكاد يذهب الى طعم الفاجعة المأساة في المصير الانساني .

والحب ، هنا ، هو رعشة النشوء التي تشعر بها الذات الانسانية في التعرف الى الاشياء والمعاني والروابط الخفية التي تختبىء وراءها . انه البهجة في اكتشاف العالم الذي يصبح ملكنا لمجرد معرفتنا به وهو سخاء اللهفة لاشراك الاخرين بهذه المعرفة .

فنحن نلمس عند المؤلفة ، اميلي نصر الله ، ليس فحسب الاحساس المرهف والملاحظة الدقيقة لاصغر الخلجات والظواهر ، وانما ايضا القدرة على نقل عدوى الاحساس بالجمال الى القارىء والرغبة الملحة لتنبيه حواسه وتفتيح مسام نفسه على الناس والاشياء والاحداث .

فلنسمعها تصور حالة الترقب التي يقف فيها القلب الانساني على تخوم اللوعة والصبوة :

« لم انم طوال الليل ، يا منى ... وكنت اسمع من حين الى اخر خطى بطيئة تزغرد في آذان الليل ... خلته هو ، يطوف حول داري . ولم اجرؤ على ان اطل من النافذة لاتأكد اني لست في حلم . بل كنت خائفة ان ينهار حلمي حين لا اراه . وبقيت الخطى تزحف في الليل فوق اعصابي ، فوق عيني وتمسح عن عيني الكرى . اراه يبتعد ، يسحب قدميه من دربي . ولم احتمل فكرة وداعه هناك بين الجميع ، حيث يصبح ملكا للجميع . ظلت اللحظات تزحف ثقيلة فوق وجودي» ... (ص١٠٧)

ان « طيور ايلول » من الروايات القليلة في ادبنا التي لا تنقطع فيها اللفتات الفذة والملاحظات الدقيقة والانطباعات التي تبهر القارىء بعمقها وبساطتها وصدقها . ولا يسع القارىء الا ان يدهش لكثرة ما يتكشف له من معاني جديدة حول اشياء وخواطر كان يمر بها مرا عابرا او كانت ترقد في قاع نفسه لا ينتفع بها ولا يتنبه اليها .

واتسام « طيور ايلول » بطابع من فرط الحلاوة يستهوي البعض من القراء ، ولكنه ينفر نوعا آخر من القراء على كل حال ، فان المؤلفة لا تشذ من هذه الناحية عن بنات جنسها اللواتي شق اسمهن طريقه الى الشهرة الادبية . فاستخدام مادة الحب الى الحد الاقصى ، والتوسع بالصور والكلمات والعواطف الحلوة هو احد الملامح المميزة للادب النسائي الذي بدا يطغي عندنا ، بتجريده كل صور الحب التي يتغنى بها من معانيه الجسدية والشهوانية . فالحب هنا ، عند مؤلفتنا ، لا يتجلى الا في اطار من العفة والنقاء ولا يوحي الا بمعاني الطهر والجمال . ان جو « طيور ايلول » بعيد عن الاحاسيس المريبة التي تحاول بعض الاقلام النسائية اليوم ان تفتح بها الابواب الى نفوس الناس .

ولكن آن لنا ان نجيب عن هذا السؤال : اين تقع «طيور ايلول» من الفن الروائي الحقيقي ؟ وما حظها من عناصر الصنيع الروائي ؟

علينا ان نقر بان زخم النفس الشعري الذي تتجنح به « طيور ايلول » يحجب الى حد ما رؤية البناء الروائي في الكتاب ، ويضعه في المقام الثاني ، ولكن هذا البناء قائم بصورة اكيدة بحيث يستحيل اخراج هذا الاثر من نطاق العمل الروائي الا اذا استطعنا اخراج الكثير من روائع الآثار العالمية في مجال الرواية ، ك «الثعبان المجنح» للورنس (د. هـ.) او « نهر الانجم » لجان جيونو ، او « السهب » لتشيكوف ، او «الاجنحة المتكسرة» لجبران ، او «الابله » لدوستويفسكي .

و « طيور ايلول » ليست من نوع الروايات التي الفناها والتي تتركز فيها الاحداث حول مصائر بضعة افراد وعلاقاتهم ببعضهم او بالعالم .

ان «طيور ايلول» لا تروي حياة الافراد بصفتهم افرادا يتحركون ويحبون ويناضلون ويولون . انها لا تلتفت الى الافراد الا بصفتهم اناسا مرتبطين بوسط اجتماعي معين هو القرية في الجبل اللبناني ، وفي ظروف زمنية معينة .

انها تروي قصة القرية كمجموعة متحدة من ارض ومن اشجار واعشاب ورياح وشمس وثلوج وعصافير واناس يعيشون وسط ذلك ويتصرفون رهنا بهذا الاطار الطبيعي المحدد .

ان كل تصرفات الناس في هذه القرية وبعيدا عنها ، وحتى احاسيسهم ونوازعهم وخلجات نفوسهم ومصائرهم تتأثر بهذا الوسط القروي .

فالنظرة الطبقية في القرية هي التي قضت على امل فواز بالزواج بمريم وحملته على قتلها . والنزعة الطائفية التي تسيطر على القرية هي التي حالت دون نجلا وكمال ، على شدة حبهما لبعضهما ، والقت بنجلا بين ذراعي سليم الفتى الضعيف ، وحيد امه وعبدها الطيع .

وجدب الارض في القرية وضيق آفاقها هو الذي حرك الطموح في نفس راجي وقذف به الى المهاجر ، تاركا الفتاة مرسال ينسحق قلبها ويحترق في نار الهجر حتى تلتمس السلوان في الارتماء بأحضان المهاجر الفني .

القرية هي البطل الحقيقي للرواية . هذا صحيح وهذا واضح . ولكن « طيور ايلول » تختلف عن الكثير من الروايات التي تحدثت عن حياة مجموعة من الناس او حياة قطاع من الحياة . شارع او قرية او منطقة او مشروع . (من امثال روايات نجيب محفوظ ، ورواية « الارض » للشرقاوي ، والروايات الشائعة في العالم الاشتراكي) . بينما تكتفي هذه الروايات باستخدام البيئة الاجتماعية او الطبيعية كاطار خارجي يتحرك داخله الاشخاص العديدون الذين يوضعون في مستوى واحد من الاهمية ، نرى ان القرية تلعب في « طيور ايلول » دور شخص اساسي ، شخص حي متعدد الوجوه والتصرفات يفعل في حياة ابناء القرية ويتفاعل معهم . ان القرية تكاد تشكل جزءا لا يتجزأ من كيان ابنائها وحضورا دائما في حياتهم ومحركا لتصرفاتهم واندفاعاتهم ونزعاتهم . انها في دمهم وشرايينهم انها المنطلق والنهاية الحتمية في مصائرهم .

فنحن نقرا في الصفحة ١٨ مثلا :

« ان القرية تحفظ كل شيء ... حتى الذين ماتوا تأبى ان ترسلهم الى البعيد . فهي تحضنهم تحت اجنحتها، وتظللهم اغصان سنديانة جبارة غرستها منذ مئات السنين السواعد السمراء . وهكذا احتضنتنا القرية حفنة من السنوات . ولما انحنينا نقبل جدرانها قبلات الوداع طوت أسماءنا ضمن سجلاتها القديمة ووسمت قلوبنا بمياسم نارية . وتبقى نقطة النار تلتهب في قلوبنا ولن تساعدنا العودة على اطفائها . فنحن لا نعود ابدا الى ما كنا عليه بالامس، وامسنا ملك تلك العشايا الساهرة في ضوء القمر، على سقيفة بيتنا . وملك تلك اللحظات النادرة التي عشناها في الماضي ، بين الحقول وكروم الزيتون » .

القرية في « طيور ايلول » شخص له مزاج واحساس وعادات وتصرفات .

فلنقرا في الصفحة ١٠ وما يلي عند الحديث عن العلاقة بين الطيور التي تعبر الاجواء في شهر ايلول في رحيلها الى مطارح الدفء ، وابناء القرى اللبنانية في رحيلهم الى ارض الهجرة تحت كل سماء .

«ويبقى طعم الهجر يتململ في اجواء القرية اياما ...»

«وللقرية عطف خاص على طيور ايلول . رحيلها يعيد الى الذاكرة صور الطيور الكثيرة المهاجرة .

« ويتلفت السكان ، وقد اعياهم العجز ، ويصبون النقمة على القرية الصغيرة الوادعة . وتعجز القرية عن رد السهام الناقمة او الوقوف في وجه هذا التيار المتصل جيلا بعد جيل . انها تحضنهم ولا تدري ... تتحكم بمصائرهم دون ارادة منها . تذري ارواحهم كما يفعل الفلاحون على بيادر القمح ... وتطبع قبلة عميقة تسم بها وجوههم . ويحملون قبلاتها كبصمات القدر فوق جباههم ويسيرون في الارض ، في كل بقاع الارض ، غرباء فيها يبحثون عن الكنز الضائع ... المدفون في ركن عميق من صدورهم . »

اننا نكاد نلمح في « طيور ايلول » بذور مفهوم غامض للاحداث الاجتماعية يقترب من النظرة المادية التاريخية او الحتمية العلمية . فكأني بالمؤلفة احست بأن الانسان نتاج مجتمعه وظروفه التاريخية .

فلنسمع لمرسال ، هذه الفتاة المرهفة الحس التي لم تتعلق بالحياة الا من خلال حبها الجنوني لراجي ، الذي ابعده طموحه الى المهجر . فلحقت به الى اميركا ، مع رجل لا تحبه . وبعد سنوات طويلة كان لقاؤها براجي . فلنسمعها تصف خيبة املها لهذا اللقاء الذي تم في ظروف تختلف عن ظروف مولد الحب في القرية (ص ١٩٤–١٩٦) .

« اقتربت من راجي اهز يده واتعرف الى زوجته وابحث في عينيه عن حكاياتنا القديمة ... وصدمني جدار الجليد ... وعدت اتأمل راجي من جديد ... لقد تحول كثيرا يا منى : انه سوى الشاب الذي عرفته ضمن حدود قريتنا ... لقد احتضنته تلك المراة غريبا مهاجرا وحيدا ... وبقي للايام ان تنهي فعلها ، فأخذ الزمن يقولب شكله ضمن الاطار الجديد ... انا في شكلي الحالي، امراة ناضجة وزوجة حكيمة ... انا لا اشبه الطفلة المراهقة بين كروم العنب والزيتون ... وفكرت يا منى ، ان حبي لراجي كان وليد تلك اللحظات ضمن حدود القرية ... وهو باق هناك مالك ذرات الغبار ، فوق الوادي ودرب الكروم ... ربما احبني راجي بمقدار حبي له ... ولكن حبنا رهن ذلك المكان والزمان ورضيع صدر لا يعرف الفشل ، صدر قريتنا ... والان ، لقد تعمد كلانا بنيران الغربة ومر كل منا في أكثر من تجربة ، وحقق كلانا بعضا من الاحلام » ...

هذا المقطع . ومقاطع اخرى كثيرة غيره يدل على نظرة ديلكتيكية عند اميلي نصر الله التي يبدو انها تؤمن بالتحول المستمر عند الانسان ، وبخضوع عواطفه وافكاره وكل ما يكون شخصيته ، لظروف زمانه وبيئته خضوعا حتميا .

ونحن ندعو الى قراءة الصفحات التي تنهي بها المؤلفة روايتها والتي تصف بها فعل الزمن في تحويل منى ، تلك البطلة الاخرى للرواية (ونحن نعتبرها ومرسال وجهين مختلفين من شخص واحد) فمنى حملت ، هي الاخرى ، ذكريات قريتها معها الى المدينة « مياسم من نار » ، وظلت لشدة تعلقها بهذه الذكريات على اعتقادها ان القرية لا تزال الفردوس المفقود الذي ينتظرها . فما كان اشد خيبتها عندما رات القرية تتنكر لها وتلفظها وتتجاهلها ، لانها كبرت وتغيرت وتحولت ، في جو المدينة ، دون ان تدري ورغم ارادتها .

وكذلك قصة سمعان الشاب الذي قضى في المهجر سبعة عشر عاما وعاد الى القرية ، وكيف كانت خيبة امه الارملة التي كانت تعيش على حلم عودته . فنقرا في الصفحة ٩١ :

« لم يلحظ أحد التحول الذي طرا على الام وهي تحدق

في الكهل البدين امامها، محاولة ان تقنع نفسها بانه ابنها. »

وهذا يجرنا الى الحديث عن عنصر اخر تتميز به رواية « طيور ايلول » ، هو عنصر الزمن فان الاشارات الى الزمن وفعل الزمن في تحويل الناس والحياة الفردية من جانب، والى عجزه عن التأثير على القرية ككل ، وكوحدة قائمة باستمرار ، لا تحصى في صفحات الرواية .

« فالقرية لا تحفل كثيرا بمرور الايام ... ان الزمن ينزلق فوق صخورها الصلدة » (ص ١٤) . « وانجلينا كانت اكثر من ذلك ... كانت الساعة التي تسجل كر الزمن » (ص ١٧) . « ان هذه الطيور المهاجرة تسجل نقطة في دائرة الزمن » (ص ١١) . « كنت ارى في الرحى قوة الزمن العتي .. الزمن الذي يدور فوق كياننا ، فوق رموش عيوننا ... في كل لحظة من لحظات الوجود » (ص ١١١) . « كيف تموت اللحظات في المدينة والمدينة الجبارة تفتح سواعدها العملاقة تضم اليها لحظات الزمن» (ص ١٢٤) .

فالزمن عنصر دائم الحضور في كل جوانب الرواية . والزمن عند اميلي نصر الله ليس تتابعا لما يمكن قياسه بالساعات . وما هو بالبعد الميتافيزيقي الذي يقوم كحد للوجود وكنطاق لسير الاحداث . انه طاقة حية وقوة داخلية فاعلة في النفس الانسانية . انه عامل من عوامل تطور الكائن الفرد . وهو كالخمائر والاحماض التي تساعد على حدوث التفاعلات الكيمائية والتغيرات التي يحدثها ليست من النوع الذي نعهده فيما يتعلق بالتقدم بالعمر ، بل هي عمليات انزلاق من حال الى حال ، في النفس وفي الشخصية وفي القيم والمفاهيم . انها تتابع حلقات الصيرورة الديالكتيكية . وتكاد جميع مآسي الاناس الذين تروي « طيور ايلول » قصصهم ، تتلخص في عدم التوازي في وتيرة التحولات التي تصيب الافراد السائرين معا على دروب الحياة .

فمأساة « مرسال » و « راجي » ان الشاب ادرك ضيق مجال القرية عن احتمال طموحه وعن تأمين الظروف الملائمة لحبهما عشرين سنة قبل ان تدرك الفتاة هذه الحقيقة . وفجيعة « ام سمعان » بعودة ابنها من الغربة في صورة تختلف تماما عن الصورة الزاهية التي حضنتها له في قرارة ذاتها مدة ١٧ عاما ، كانت اكبر من فجيعتها بغيابه .

ومأساة « منى » ، الفتاة البريئة الحالمة لم تتفجر الا عندما ادركت اخيرا ان الحب الذي تحمله للقرية في كل فلذة من كيانها ، لا تبادلها القرية اياه ، لأن القرية لا تتغير ولا يفعل الزمن فيها فعله ، بل « ينزلق عليها كما ينزلق الماء على الصخور الصلدة » بينما هي تتغير والناس كلهم ، كأفراد ، يتغيرون . ومن هنا كان التمزق وهجران الناس الذين يتحرك فيهم الوحي والطموح للقرية المستعصية على فعل الزمن والمنغلقة على نفسها ، على الافكار والعادات الجامدة ، المتحجرة فيها ، والمتحدرة اليها من الاجيال

الغابرة ، مثلما تنغلق بقايا الاسماك المتحجرة تحت ركام ملايين السنين .

مأساة الهجر والرحيل، التي تتركز عليها «طيور ايلول» والتي ترمز اليها الطيور المهاجرة الى الافاق البعيدة ليست الا مأساة عدم التوافق في فعل الزمن في الافراد المختلفين من جهة ، وفي الافراد والجماعات من جهة اخرى . فبالرغم من ان الزمن الذي تسجله الساعات واحد ، ويسير على وتيرة واحدة ، باللغة الرياضية ، يسير الزمن النفسي او الزمن الفسيولوجي بوتائر تختلف على عدد الافراد والجماعات . وهذا التفاوت في الزمن النفسي هو احد الخصائص المميزة للطبيعة الحية .

وليس من بلد في العالم يدرك مأساة الرحيل ، او « طعم المهجر » ، كما تسميها اميلي نصر الله ، مثلما يدركها لبنان . فالبلد الذي يتعرض لنزيف دائم من ابنائه الذين يدفعهم الطموح والمجال الضيق وارضه الجاحدة للتوجه الى كل دنيا بعيدة هو المسرح المختار للعب مأساةالتمزق هذه.

فما من عائلة لبنانية الا وعرفت من قريب او بعيد جانبا من جوانب هذه المأساة واحست بوطأة الزمن في فتح الجراح لدى ذهاب الغياب وفي رأبها والتئامها مع مرور الايام وفي تغيير ملامح العائدين ومسخ نفوسهم وطباعهم .

مأساة الرحيل هي ، اذن ، مأساة لبنانية صميمة . واميلي نصر الله تنفذ ، اذن ، تحت هذا البرقع الميتافيزيقي وعبر هذا التصوير الشعري الى صميم الحقيقة اللبنانية .

ونحن لا ننعت بالميتافيزيقي هذا الجانب من « طيور ايلول » . الا لنبين ان المؤلفة لم تكتف بتسجيل احداث واقعية ، وقد تكون وقعت حولها في الوسط القروي الذي نشعر انها عاشت فيه ، بل ارتفعت من عملية التسجيل او التصوير الفوتوغرافي الذي يتردى فيه اكثر الكتاب انواقعيين عندنا لتصل الى ما يسمى بالرؤية الفنية .

انها تضع الاحداث في سياق معين لتبرز معاني ومرامي ما كان للمشاهد العادي ان يراها بمفرده .

وهي تقوم بذلك بصورة لبقة مستحبة ننساق معها دون كبير عناء .

وقد آن لنا ان نشير الى مدى انطباق « طيور ايلول » على مقاييس الرواية .

ولكن ، هل هناك مقاييس واحدة متفق عليها تميز الرواية عن بقية الفنون الادبية ؟ انا لا اعتقد ذلك .

على كل حال ، فان «طيور ايلول» تجمع عناصر تستجيب للمفهوم الكلاسيكي للرواية ، الى عناصر تنطبق على المفهوم المتحرر للعمل الروائي .

فمن الصورة الكلاسيكية للرواية ، هي تتضمن سلسلة من الملامح المكدسة التي تحاول بوساطتها ،ان تنفخ الحياة في اشخاص عديدين ، اشخاص تطوف بهم في مواقف متعاقبة تشكل ما يسمى بقصة او بمجموعة قصص مترابطة: قصص حب وهجر ، قصص نضال لاحياء الارض واخصابها،

وهرب من النضال ، قصص امال تتفتح ، ومطامح تتحقق ، وقوى سوداء غاشمة تسحق القلوب وتحطم الطموح وتذري النفوس والمصائر في مهب الرياح .

عشرات القصص تتعاقب وتتشابك في نمو متصل او منفصل لتشيد بناء الحياة في القرية وبعيدا عنها لبنة لبنة وسلكا سلكا حتى يصبح متماسك الاجزاء متلاحم النسج.

واللحمة الموضوعية في الرواية تتم بتصوير مظاهر الحياة المشتركة في القرية ، ونوع من الحياة الجماعية فيها : قطاف العنب ، وعصره ، السهرات في الليالي المقمرة او في ليالي الصقيع ، حفلات الوداع المشترك للمغتربين ، ساعات فض البريد ، ومضغ الاحلام والترقب المشترك لانباء الغياب ، وفن نقل الاخبار والاقاويل بواسطة بعض النساء المشؤومات المتخصصات بالدس والتوسط للتزوج ونقل اخبار السوء .

اما اللحمة الذاتية فتتم بوساطة المونولوج الداخلي الذي تحدثنا فيه « مني » عن كل فواجع القرية ومباهجها حديث من يحمل في كل فلذة من كيانه كل وجوه ابناء القرية واحداثها والمصائر التي تلعب في اطارها او في امتدادات اطاراتها .

ورغم الزخم الشعري الذي يتبجس من كل اجزاء الرواية فان ملامح الاشخاص الذين تتحدث عنهم مرسومة بوضوح وفهم وتركيز على الخطوط الجوهرية .

وهذه بعض نماذج من ضربات الريشة البارعة التي تصور فيها اميلي نصر الله بعض اشخاص الرواية وتصرفاتهم بأقل ما يمكن من الخطوط وبأكثر ما يمكن من الاكتناز .

« وكان الذي يتطلع في عيني ام راجي يلحظ خيبة مريرة تجول في ماء العينين وبقايا طموح مندحر يرزح في غضون الوجه » ص ٨١ .

« كمال يشرع ابواب العالم امامها وسليم يحاول ان يطبق على وجودها ويخنقها في شرنقة ضعفه » ص ١٦١ .

« وتحولت امها الانسانة المستسلمة التي تحيا بقوة الاستمرار ... تحولت صاحبة الوجه الوادع المنبسط الى لبؤة يثير شراستها انفعال قاس ... وكشرت اللبؤة عن انياب نبتت لها في تلك اللحظة » ص ١٦٢ .

وريشة اميلي نصر الله لا تلتفت فقط الى وجوه الناس وعاداتهم وسلوكهم ، وانما ايضا الى الكثير من اشياء الوجود وظواهر الطبيعة او تصرفات الكائنات الحية . وهذه اللفتات تتسم دائما بالفهم ودقة الملاحظة وشمول الثقافة . فقصة « الطيور » التي ترحل الى مواطن الدفء في اوائل الخريف ، والاسماك التي تتحجر بفعل تراكم ملايين السنين ، ووصف الطبيعة في تحولها المستمر مع تغير الفصول . كل ذلك يدل على قوة ملاحظة ومعرفة علمية تذكرنا ، ولو من بعيد ، بروايات شتاينبك (عناقيد الغضب والوادي الكبير) ورديارد كبلنج (كتاب الادغال) وباك (الارض الطيبة) وهمنجواي (ثلوج كليمنجارو) ، وبحرصهم الدائم على تصوير ظواهر الحياة الطبيعية في دقائقها وتفاصيلها .

هذه الجوانب من رواية « طيور ايلول » من شأنها ان تحمل على تصنيفها في خط الاثار الادبية الواقعية . فقد ظلت رغم مدها العاطفي الزاخر بالنبرة المأساوية ، حديثا عن مجتمعنا والى حد ما ، حديثا عن عصرنا .

ويبدو على المؤلفة وعيها لهذه الحقيقة : وهي ان انهيار بعض الاطارات الدينية والاجتماعية التي كان الوجدان يرى الحلول لعلاقاته مع العالم في نطاقها ، يفرض على الكاتب ان يضع كليته كانسان في مكانها من كلية الوجود .

الثورة على التقاليد التي تسحق الانسان

فكان من الطبيعي اذن ان تحاول المؤلفة الهجوم على الاطر التقليدية لعلها تنسفها من داخل ببيان فسادها واثرها الاجرامي في سحق الانسان وتدمير احلامه وتوقه للهناء .

ونبرة النقمة التي ترتفع من كل جوانب الرواية ، ضد الواقع الحزين والوحشي الذي يحياه الناس في محيط القرية يمهر هذه الواقعية ، احيانا ، بطابع الثورة الحقيقية .

فالرواية ، رغم ما يتوهمه اكثر الذين قراوها قراءة عاجلة ، بعيدة عن ان تكون تمجيدا ساذجا لحياة القرية اللبنانية وتسبيحا للنعيم الطوباوي المقيم في ربوعها . انما هي مطالعة قاسية ضد كل الجرائم فيها بحق القلب وبحق الحب الانساني تارة باسم الطائفية وتارة باسم الطبقية وطورا باسم المحافظة على التقاليد العمياء . وفيها اتهام صارخ للروح المتحجرة عند الاباء الذين يرفضون ذهاب بناتهم لتلقي العلم ويرون في كل نبضة حب ، حتى في اكثرها طهرا وبراءة ، جريمة منكرة ، ويجعلون من الحب سببا لمنع الزواج ، وفي الرواية ثورة ضد العادات المتخلفة التي تجعل من المراة المتزوجة آلة للتفقيس فحسب ، فلا قيمة لها الا بعدد اولادها . وفيها هزء بالنساء اللواتي يستسلمن لمصائرهن راضيات برتابة حياتهن وحتمية تدرجها نحو الزواج فالحمل فالذبول فالفناء .

فـ « طيور ايلول » تحمل ، اذن ، شهادة صريحة وجريئة في اوضاع المجتمع الذي تصوره . ولا نحب ان نقول انها تحمل شهادة على العصر ، لان القرية التي تروي لنا احداثها تبدو وكما لو كانت تعيش خارج الزمن الذي ينزلق على صخورها الصلدة . انها كالسمكة المتحجرة لفرط ما تراكمت العادات القديمة فوق جوها واحاطته بالاسوار المنيعة التي يمتنع على التطور ، وحتى على الزمن ، اختراقها .

وهذه الصورة للقرية تعطيها طابع الشمول الانساني وتجعلها صالحة لان تكون نموذجا لكل القرى في اكثر المجتمعات الانسانية .

ومن جهة اخرى ، فان هذا الطابع السرمدي للقرية يزيد شعورنا بالعطف على الاشخاص الذين يحاولون فيها التحول مع الزمن والذين يتطورون وتنمو احاسيسهم واذواقهم ومطامحهم . وهو يدفعنا لان نشاركهم غصصهم وحرقتهم

عندما يضطرهم عدم الانسجام هذا مع القرية الجامدة الهامدة الى الانفصال الدامي عنها .

هؤلاء يتحركون في المدى الزمني بعكس القرية ، ويضطرون ابدا لتحطيم هذا الاطار الصلد او للتحطم على جدرانه ، او للهرب . فهم ابدا نهب الذكريات وفي التفات دائم الى الماضي .

ومن هنا لجوء المؤلفة الى وسيلة الحوار الداخلي والى تقديم الاحداث في صورة استعادة ذكريات في خاطر احد اشخاص الرواية : الفتاة « منى » . فهذه الوسيلة تسمح للمؤلفة بتحقيق الوحدة النفسية في الرواية وبتأمين اللحمة الذاتية بين الاحداث والمشاهد والانطباعات المختلفة .

ومن هذه الزاوية تلتقي « طيور ايلول » مع تيار الرواية البسيكولوجية ، هذا اللون من الرواية العصرية ، الى روايات « اميرة كليف » و « ادولف » وتأكد مع روايات دوستويفسكي ، وخاصة « الانسان السردابي » ثم بلغ ذروته عند بروست ، وجويس ، وفرجينيا وولف ، واصبح الوجه السائد في روايات اليوم .

وهكذا نجد اميلي نصر الله تسعى ، عبر الفتاة القروية المرهفة الحساسية « منى » (ولعلها مرحلة الصبا في حياة المؤلفة) ، للتنقيب في السلسلة اللامحدودة من الانطباعات التي اودعها الزمن في الخاطر ، والى بعثها بلطف وتأن لا ينقطع . خاطرة خاطرة ، وطبقة بعد طبقة من الذكريات . لذلك يبدو البناء الروائي في « طيور ايلول » تحولا مستمرا في ضمير المتكلمة الشاهدة للاحداث ، تحت مطر الانطباعات وامام سيل الحوادث .

وكان حتما ان نجد في هذه الرواية مزيجا من البث الوجداني ومن حديث السرد ، مندمجين متواصلين في اسلوب فريد وبلغة فذة .

ان الفن الروائي في « طيور ايلول » يقوم على استخدام العاطفة المحضة التي تخلق بمجرد اندفاعها حتى نهاية منطلقها . الجو المأساوي .

فالناس ليسوا ، فقط ، من النوع الذي نجده في الشارع او داخل المنازل ، انهم ، احيانا كثيرة ، نوافذ مفتوحة وشفاه منفرجة ، وهم يتألفون من مواكب انطباعات وسير احداث ذهنية ، هي برهان الكائن .

والخلاصة ، فان « طيور ايلول » هي صنيع خرج من بدي اديبة حريصة على فنها ، بل هي افضل : انها صنيع شعري . فنحن نرى المؤلفة تبلغ الحقائق الجوهرية بانقيادها لحقائق الالهام الشعري . فمعرفة الكائنات الانسانية والاقتراب من سر الوجود يتمان بفضل المراس الشعري .

« طيور ايلول » تجمل قسمات الادب اللبناني

وبهذه السمة يحق لرواية « طيور ايلول » ان تدعي الانتماء الى اصفى تقاليد الادب اللبناني الاصيل . فالى جانب غناها بالمحتوى الشعري ، هي تحمل الكثير من قسماته المميزة : اناقة الاداء ، وصفاء العبارة ، وشفافية الديباجة، ورونق المحتوى وعفته ، وسلامة المرمى وعافيته، وخاصة التعاطف الوجداني الدافق بين الانسان والطبيعة ، بين الذات والاشياء ، بين الروح والارض ، والتواصل الحر المطلق بين مختلف مظاهر الوجود .

والطابع اللبناني في « طيور ايلول » هو لون من نكهة الخمرة التي تختص بها رقعة من الارض . انه شيء تدركه الحواس ولا يحده العقل . فكثير مما يحس ولا يحد في رقة هوائنا وصحو سمائنا ، وكثير مما يلوح ولا يبدو في وجوه ابناء بلدنا وايديهم وعيونهم واحاديثهم ، وكل ما يختلج في افئدتهم من زوابع واعاصير ... كل ذلك قد استطاعت اميلي نصر الله ان تتصيده وان تقدمه لنا في مزيج من اناقة العرض وحلاوة التذكر ومرارة الاسى وزمجرة اليأس .

فمرحى لهذا الاثر الذي يمثل وجها حلوا من عطاء اللغة العربية في ارضنا اللبنانية .

الجزائر **علي سعد**

الان الغامضة

●

يدور دوّامة هذا الوجود
في تصاوير الصباح المعي
يلفظن الحلم فما .. لهفة ..
ـد يد .. عمارة للمعي
عرافة ما برأت وهمه
يا ماأحيلى وهمه المبدعي !
اغنية ما وسعت ظله ..
الشمس ما روته من منبع !
لربما أفلت مني ولم
تلمّه كواي او بلقعي
لربما جمّر أسطورة
طارت ، ولم تعد .. ولم . لم اع ...

*

البر ؟ البحر ؟ الانا ! نابضا
في معول يلتمّ في مقلع ! !

حلب **علي الزيبق**

من مجامر الصخور

« مجامر الصخور » كتاب معد للطبع يضم مختارات كتبت بين ١٩٤٦ - ١٩٥٢

بقلم ثريا ملحس

كل المبدع ، وعقص حولـه الغيوم ، وبات الضباب عبيرا ، يلف الجبال ، ويحوك له العرازيل ، يصعد من اغوار الوديان ، هدير نئيم .

تعب ، فانكرت عيونه ، وحطمت يداه كل سهم في جعبته ، تدفقت انهار الحياة ، وطلع الليل يتهادى وعلى صدره الف لون من الوان الازاهير .

مل الجمال وراح يذوب المبـدع في الدن ، فسكر الكون ، وبات في العدم ، في قلب شاعر مجنون ، هـام على وجهه في البراري ، ينشد الاناشيد . قهقه الليل الحالك ، وجبل اسطورة للشاعر ، القاها في البحار ميعة .

مر الشاعر المجنون ، وصرير الالـم يسري في جوانحه ، فانتفض للذكرى ، مد يده وتمطى ، يزود قلبه من عبير الميعة ، امام الشاطىء وقـف ظليل الماضي ، ينتظر دنو الاسطورة ، تلك الذكرى .

مر الزمان ، واليد تطارد ، يد حمراء وراء خيال اسمر .

*

... الهي ، فداك ابكي ، وراءك اسعى ، لارى محياك الاسنى .

كنت خالية من الداء ، فهويت عليك ، التمس الجمال شفاء لروحي الصادية .

الهي ، افتح قلبي ، ودع عيني فـي نورك القدسي .

الهي ، انت رجائي ، وغنوتي الابدية ، ومطلب كل تائه ، انا فاغرة ذراعي للقاك الهي يا انت كل جمال وكمال وسناء .

*

... بيني وبين الاشجـار الملتفة ، بردى يعصف بأوتار شطيه ، فيعلو نغم ، يغمر الامواج ، ويلتوي الى اعماق الوادي كالانين . وهناك الطيور الصفراء ترنو الى الشاعر ، تصفق كلما لامس الموج جانحها ، وتحمل نسيم الليـل على مناقيدها ، فتنشره اطيابـا في دروب الشاعر .

اما الشاعر فساه ، يتطلع الى السحب السبوح ، لقد كان لحده هناك ، لو كان له السحب مركبا ، ينتقل حيثما تنتقل ، الى الجمال ، الى الآلهة التي علق بها .

بكت السماء ، وقهقه الشاعر ، هوى فطواه بردى ، حاك له مـن الامواج ثوبا رقيقا .

وحملت اليه الطيور اغاريدها .

ومشت تشيع الشباب بلحن الالم .

*

أيتها الوردة الزاوية ، انهضي ، ان الصباح يطل عليك ، والشمس تهدهد لونك مبتسمة للقاك .

وعصافير الدوحة ترتـل صلاتها ، ومآقي الازهار تندف دموعها لفراقك .

انهضي ... انهضي ... اطلي عليها من كوتك ، من اكمامك .

اين حياتها ايتها الوردة الذاوية ؟ لم لا تجيبين ؟

انهضي ... ابتسمي لغدك الآتي ، ودعي ماضيك المنصرم ، ان فيك ما يشتهيه الكون .

جمال وطيب في طياتك يرقدان

لم لا تشعرين ؟ .. المسما تلمسين .

تعهدتك بعنايتي ، افرغت لك حقي ، جبلته من روحي فانفجر ، وذبلت .

ماذا تقولين ؟ قولي ... تكلمي .. حدثي .

انا ... انا ... انا مجرمة ، قاتلة ؟ كيف ؟ ومتى ؟

الا تسمعين .. الا تسمعين .. ان العرق ينساب سحا .

لم ادر ان روحي لا تسع شيئا .

أيتها الوردة ، يا وردتي المحتـضرة ، شكرا على صموتك ، على صبرك الطويل لو كنت من البشر ، لملأت الفضاء صراخا ، وانتقاما .

عرفت .. عرفت أيتها الوردة ، انني من طينة غير طينتك .

انت هادئة ، لا تثورين ، اما انا فثورة فثورة دائمة .

وداعا .. وداعا يا وردتي ..

*

... يا اشجار المسك العارية ، يـا التي تخفق في الهـواء البارد ، اين اثوابك الخضراء المطلة من بين الاغصان بدلال وايمان ؟

أين ازهارك البيض المتراقصـة على جذعك الغض ، بل اين شبابك ؟

أين اغصانك الوارفة التي كانت بالامس تظللني في ساحة دارنا ؟ ايام كنت اصلي في طفولتي ، وامرح مع اخوتي ؟

أين ايماني الـذي هب عنـي هبوب اوراقك الصفراء ، ورواح طفولتي ؟

ذهبت .. ونضب فيك الماء ، وجمدتك السنة الصقيع ، وغدا سيعود الربيع ، وترجعين الى شبابك الاخضر ، الـى ايمانك ، حينئذ لا ارى فيـك يأسا ولا نفورا من الحياة .

انت خريفية الان ، وعن قريب تصبحين ربيعية ، تموتين ثم تحيين ، تكهلين ثم تشبين .

اما انا فلا اعرف متى اموت ، وهل احيا بعد ذاك ؟

ولن اعود الى طفولتي ، ولن اعود الى شبابي بعد كهولتي .

يا اشجار المسك العارية ، خريفية انت .

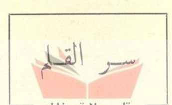
قومي وتأزري بزرقة السماء .

توسدي الارض ، ارجعي حياتك .

أيام كنت تظلليني بقطوفك البيضاء ، وافنانك الخضراء .

ارجعي لي ايماني ، فأنا احب السجود .





بقلم سلامة خاطر

اخترع احد علماء اوربا في القرن الماضي ساعة تملأ تلقائيا دون احتياج الى من يجدد ملأها ، ووضعها في ذروة برج عال مشرف على جميع الجهات ولا سبيل الى الصعود اليها، وظلت الساعة تؤدي وظيفتها بدقة كاملة مدة خمس وثلاثين سنة . الى ان مات مخترع الساعة ، فتوقفت آلاتها عن السير يوم وفاته بالذات ، وظلت هكذا ولا يدري احد سر توقفها ولا طريقة اصلاحها ، وكأن روحها لحقت بروح مخترعها الى الابد .

قرات هذا الخبر في احدى الصحف ، ولم اعلق عليه كبير اهتمام.

اننا مهما اوتينا من العلم او قوة الادراك ، فلن نصل بحال من الاحوال الى اكتناه هذه المعميات ، فما هي علاقة الجمادات بحياة الانسان ؟ واي خيط يربطها بمصيره ؟ تذكرت هذه الحادثة بعد ان وقع تحت سمعي وبصري حادث مشابه لهذه الظاهرة العجيبة ، ولعل بعضنا يختصر طريق التفكير فيقول : ان هذه الظواهر تدخل من باب المصادفات ..! واليك قصتي :

قال صديقي حسني :

– لقد وثقت بسلامة ذوقك ، وحسن اختيارك للاشياء فهل تسمح برؤية الخطيبة التي وقع عليها اختيار صديقنا امين وتصارحني برايك الصائب ؟ قلت :

– ان امين زوج شقيقتي ولا احب أن اجرح شعوره بالتدخل في امر يقع من اختصاصكما معا ..

– ان امين هو صاحب الفكرة وهو الذي اختارك لتكون حكما في موضوع الخطبة ..!

– الم تعجب بها انت الذي ستعاشرها، وتتخذ منها سيدة حياتك وام اولادك .

– رايتها ولكنني شاب كثير الخجل لا استطيع ان اتمالك الوعي في مثل هذه الاحوال ، ولا ادري على وجه التحقيق ، هل هي كما يقولون : – رقيقة الطبع ، ذكية الفؤاد ، واسعة العقل ، رضية الخلق ، سهلة القياد ، طيبة العشرة .

– قلت لك يا صديقي ان هذه الطبائع تدركها انت دون سواك ولا يمكنك التأكد من هذه (المواصفات) الا اذا عاشرتها مدة لا تقل عن عام كامل ، وكل امرىء منا له معياره الخاص ، وعقيدته الذاتية ...

– لقد استخرت الله ورضيتك حكما كأنك انا تماما ! وفراستك اقوى من فراستي ، ونظرتك ادق من نظرتي ، وتجاربك بنوع خاص اكثر من تجاربي .

– وما هو شعورك نحوها ؟ هل خفق لها قلبك ، هل استولت على وجدانك ؟ هل طابت بها نفسك ؟ وانشرح لها صدرك ؟ من اول لقاء بينكما ؟

– اخشى ان اقع في هواها فيعميني الحب عن النظر الى حقيقة مستواها !

– هذا حق وسأذهب اليها بمرافقة صهري امين واوافيك بما اراه وانت صاحب الشأن اولا واخرا ..

وجلست امينة بعد ان صافحتنا ، وحيتنا تحية لا كلفة فيها ولا رياء ، وكان يبدو عليها المرح ، ورغم أن هذا كان اول لقاء وقع بيني وبينها فقد كانت صريحة متحررة تمضي على سجيتها فاعجبني منها ذلك .

واراد امين ان يسر الي كلاما فاخرج قلمه الفاخر من جيبه وحاول الكتابة غير ان القلم توقف لنفاد مداده. وناولته قلمي المتواضع فكتب بضع كلمات وناولني قلمه سهوا منه فتناولته بسرعة ووضعته في جيبي وانا اقدم له شكري ولكنه استدرك وصاح هات قلمي وخذ قلمك ..! وهنا تدخلت امينة، فناولتها القلمين وقلت اختاري لي احد هذين القلمين ، فابتسمت ابتسامة ذات معنى ونظرت الى صهري وقد بسطت لي راحتها وفيها القلمان وكأنها واثقة بقوة ارادتها وهي تقول :

– خذ ما يعجبك منهما وعلي التنفيذ فاخترت القلم الفاخر ، قالت ضعه في جيبك فهو لك هدية مني – وكنت اعلم ان قوة تأثيرها على صهري امين لا تقاوم فاطمأننت واودعت القلم في جيبي شاكرا .

وانتهت الزيارة بعد ان تناولنا القهوة ودار بيننا حديث قصير استطعت خلاله ان اعطيها الدرجة التي تستحقها بجدارة .

وكان حسني ينتظرنا بمنزله فما ان رآنا حتى تهلل بشرا وسرورا وراح يستفسرني بلهفة فسبقني امين الى الكلام :

– ابشر يا حسني فقد كان لها في نفس صاحبك اثر كبير من الاعجاب والتقدير ، حتى لقد تمنى ان تكون من نصيبه هو لو لم يكن متزوجا ..

فنظر حسني ناحيتي وقد اغمض احدى عينيه وقال بغبطة : هكذا ؟

– اجل يا صديقي، انها فتاة مثالية قوية الارادة ، سلطانها بعيد المدى فتقدم على بركة الله ولا تتردد .

وتم عقد القران في حفل شامل وانتقلت العروس الى الفيلا الصغيرة التي اعدها حسني في ضاحية مصر الجديدة ورفرف طائر السعادة على وكرهما الامين وكنا نتردد بين حين وحين على بيت العروسين ويطول بنا السمر فنسرح في مسارح الذكريات، فكنت اقول للعروس : انني ما زلت معتزا بهديتك الغالية فتقول وعلى محياها تتراقص اطياف البهجة

والحبور :

ــ لا تفرط في هــذا القلم ، ولا تعرضه للضياع ففيه تكمن سعادتي ، وتستقر هناءتي .. فاضحك مــن كلامها وهي تؤكد لي انها جادة فيما تعتقد ، فاحمل كلامها على محمــل الفكاهة والتسلية .

ومــرت السنوات حتــى جاوزت عشرا رزق الزوجان في خلالهاالبنين والبنات وكنت في هذه الفترةشديد الحرص على القلم ، وكأن عقيدتهــا الايحائية اثرت في عقيدتي تأثيــرا فعالا .

وذات يوم بينما كنت جالسابقطار خط المطرية المتجه الى كوبري الليمون تحسست مكان القلم فلم اجده فــي مأمنه ، وخالجني الاسف ، وضــاق صدري ، حتى اضطررت للعــودة الى منزلي قبل أن استوفي جميــع مطالبي في القاهرة ، فما كدت اجلس حتى تقدم الي احد اولادي وبيــده القلم ، فطفت علي هزة من البهجــة المباغتة ، وتناولت القلم وانا اتفحصه بدقة لاتأكدمن سلامته، وقال الصغير:

ــ لقد وجدت قلمك في حجــرة الاستقبال بعد ان خرجت فاحتفظت به ولم أسلمه لاحد غيرك ، هل ستقدم الي هدية ؟

ــ اطلب ما تشاء يا بني .

ــ مجلة سمير في كل اسبوع .

ــ موافق يا عزيزي ..

وفرح الطفل كما فرحت بلقاء القلم، وعندما زرت صديقي حسني صافحتني زوجته امينة وهي تقول : كيف حالك؟ وكيف حال القلم ؟ قلت لقد ضــاع مني ووجدته بعد اليأس من لقائه ! فتغير لون محياها واتسعت عيناهــا وصاحت معاتبة :

ــ انك بلا شك ستفقد هذا القلم لانه سقط منك دون ان تشعر بسقوطه ولو انه وقع منك في مكان بعيد عن المنزل لضاع الى الابد .. قلت :

ــ لا تخافي فقد ازددت به اهتماما وعليه حرصا .

وكان صديقي حسني قد انتقــل بعائلته الى مسكن اخر باحدى الطبقات العليا من حدائق القبة وفي ليلة من ليالي الصيف ، جلست مع حسني وزوجته امينة في شرفة تطل علــى شارع مصر والسودان فطالعت على قسمات حسني امارات القلق واضطراب المشاعر . فنظرت ناحية الزوجــة وسألتها بصوت خافت :

ــ ماذا وراء حسني ؟ انه على غير عادته من المرح وسكينة النفس !

ــ لا ادري .. فلقد استولى عليه احساس رهيب من الفزع والتشاؤم، فصار لا يهدأ ولا يستقر ، ولا يكاد يهنأ له طعام ولا نوم وقد زار كثيــرا من الاطباء ولكنهم لم يصلوا بحالتــه الى قرار حاسم !

ــ وما سبب هذا الطارىء ؟ قال حسني بفتور وانقباض :

ــ لقد شاهدت رجلا يموت امــام سمعي وبصري ميتة بشعة ، وهــو عامل كان يقوم باصلاح قاعدة مصعد العمارة فسحقه المصعد قبل ان يتحوز من مكانه ..! ومن ساعتها وانا اعاني حالة من حالات الذعر والرهبة وصرت اتصور ان الموت يطاردني حيثما اسير واحس انني سالاقي نفس المصير ...

قلت له بحدة :

ــ لو كنت مؤمنا تمام الايمان لمــا انتابتك هذه الوساوس والاوهام ، ورقة الاحساس اذا لم نحصنها بروح الايمان ، وقوة اليقين كانت وبالا على من له مثل احساسك المرهف . والان يا صديقي هل قرات شيئا من كتاب الله قال لا .. قلت ألم تسمع قوله تعالى (الا بذكر الله تطمئن القلوب) ؟ واخرجت مصحفا صغيرا كان في جيب سترتي وناولته اليه وقلت :

ــ اليك هذا المصحف لتطالع فيه بقلب عامر بالايمان، وطهارة الوجدان، واستوعب معانيه السامية ، وسترى كيف عدت تستشعر الرضا والاطمئنان! وهكذا اعدت للصديق بعض ما فقده من المرح والتفاؤل .

ورات زوجته ان يغير مسكنهما تخلصا من الذكرى التي تقض مضجع الصديق ، فاستطيبت رايها .

واختارا مسكنهما الجديد فــي احدى العمارات القريبة من مكتبــه بوزارة الخزانة ، ونسي حسني متاعبه وتخلص من وساوسه واوهامه وارتدت اليه نضارة محياه ، فعاد يتبسم للحياة ، ويعمل بجد واخلاص حتى رقي الى مدير ادارة ، في مدينــة بور سعيد .

وكان لا بد لنا من ان نفترق فودعنا الصديق واسرتــه الصغيرة بقلــوب واجفة ونحن لا نملك لانفسنا الا الدعاء له بالتوفيق والسداد .

وكانت هذه اول مــرة نستهدف فيها لفراق الصديق الكريم وزوجته الوفية واولاده العزاز .

وحل الصيف على القاهرة بقيظه فوجــدت الفرصة سانحــة لزيارة الصديق في مصيفه الجميل بورسعيد فطلبت اجازتي الاعتيادية وسافــرت اليه ، وكان لقاء جميلا وحفاوة بالغة لقيني بها الصديــق وقضينــا اياما سعيدة حافلة باجمل الذكريات وكان حسني سعيدا موفورا بعمله في المدينة الخالدة ، غير ان سحابة طفيفة كانت تخفي وراءها جوهر نفسه فقد لاحظته احيانا يتكلف المرح والابتسام ، ولــم احاول سؤاله عما يعتمل في نفســه حتى لا اثير مخاوفه وانفعالاته التــي تراود مشاعره بين حين واخر .

ولم يطل مقامي مع صديقي لانني مرتبط باسرتي واولادي في الريف فسافرت اليهم بعد ان ودعت صديقي واحييت في روحه بعض التفاؤل والغبطة على ان نلتقي قريبا فــي القاهرة .

وسارت الحياة في مسالكها الطبيعية الى ان كنت في احدى الليالي اجلس على مكتبي وبيدي قلمي المعهــود ، وبدات اسطر رسالة لاحد اصدقائي بالاسكندرية ردا على رسالة حزينــة كان قد ارسلها الي غير ان القلــم سقط من يدي بغتة فتحطم سنــه وسال المداد من جوانبه فلوث اصابعي وتطاير على ثيابي وبعض ادوات الكتابة

فتشاءمت ولكني تماسكت واستعذت بالله من شياطين النحس .

واخذت اعالج القلم بصبر واناة وهدوء وعبثا حاولت اصلاحه او اعادته الى سيرته الاولى .

وتخيلت ان نذر التشاؤم بدات تبذر بذور التشاؤم في نفسي المطمئنة ، وتلاحقت دقات قلبي وشعرت بطنين مدو في اذني وطافت بخاطري تحذيرات امينة وتأكدتها حين قالت « احذر ان تعرض هذا القلم للعطب او الضياع ففيه تكمن سعادتي وتستقر هناءتي ..! »

يا لله ... احقا كانت تعتقد ما تقول ؟! ام كانت هازلة ؟

انني اكاد اصدق هذه الخرافة !! وطال بي التفكير واستبدت بي الحيرة والقلق ولن يخلصني من وساوسي الا عرض القلم على ابرع المتخصصين في اصلاح الاقلام ، وبعد جولة بين محال الاقلام في شارعي شريف وسليمان وبعض محال ميدان العتبة الخضراء عدت بالقلم وهو مكفن في غلالة رقيقة من الورق الشفاف فجلست الى مكتبي ووضعت القلم امامي ورثيته بقصيدة عصماء وبادرت فسطرت الى صديقي خطابا استفسر عن حالته لانه على خلاف ما عودني لم يكتب الي ولا رسالة منذ فارقته في الصيف ولكن مر اكثر من اسبوع ولم يصلني رد رسالتي فازداد تشاؤمي ولولا تراكم اعمالي وتفاقم شواغلي لسافرت اليه فورا وكدت ابرق اليه ولكني خشيت ان ازعجه فكتبت الى اخي في بور سعيد استفسر منه عن حسني واخباره فجاءني رد اخي سريعا وفيه بضع كلمات ما كدت اطالعها حتى كدت اصعق في مكاني :

حسني في حالة خطيرة بمستشفى (...) اذهب حالا لزيارته ....

وانتقلت سريعا الى المستشفى المقصود ولكني رجعت عندما علمت انه خرج الى بيت صهره بحدائق القبة منذ ساعة وفي اقل من الساعة كنت الى جوار صديقي وصافحني بشوق وترحيب وهو متكىء على الوسادة وقد تورمت اطرافه وانفاسه تتلاحق بشدة وهو لا يفتأ يحيي جلساءه بين لحظة واخرى وكأنه يوهم نفسه او يوهم الجالسين حوله من الاهل والاصدقاء بانه في طريق الشفاء فنظرت الى زوجته وكانت تكتم حقيقة مشاعرها الحزينة حتى لا تضعضع الزوج الحبيب ويتخاذل في مواجهة دائه ذلك الداء الذي اعيا نطس الاطباء وسخر من العلم والعلماء

وهكذا كانت هذه الزيارة اخر عهدي بصديقي الوفي الكريم .

وعدنا بعد ان شيعنا تلك الروح الطاهرة تشارك زوجته واولاده وعشيرته في اساهم ونستقبل المعزين الذي غلب الحزن عليهم فلم يستطيعوا كبح مدامعهم المنهلة حزنا على الشباب الطموح الذي ودع الحياة والاحياء قبل ان يسعد بنصيبه من الدنيا !

ولم التق بزوجة حسني الا بعد الاربعين من وفاة زوجها فلما راتني احتبست الكلمات في حلقها وجلست تغالب مدامعها وهي مطرقة تهيم بافكارها الحزينة في كل سرحة من مسارح الامس الدفين ، ولاول مرة رأيتها في ثياب الحداد ولكني اكبرت فيها روح الصبر والتجلد والاستسلام لمشيئة الله ومن حولها اطفالها في هدوء الملائكة وعليهم مسحة من الشجن تبعث في النفس لواعج الاسى .

لبثت اعزي امينة بما حضرني من كلمات العزاء ولكنها كانت مطرقة لا تجيب الا باشارة من راسها قلت وماذا بعد ؟ وفيم تفكرين ؟!

قالت وهي تغالب زفرة محتبسة في صدرها :

ـ اين ذهب القلم ؟ وكانت لا تعلم شيئا عن مصيره ..! فغصصت بريقي وغامت عيناي ولبثت شاخصا لا اطرف ولا انطق فاعادت السؤال :

قلت بعد تفكير طويل :

ـ اما زالت هذه العقيدة تراود خيالاتك ؟ قالت باصرار

ـ لا بد ان تخبرني بالحقيقة ..!

قلت باسي :

ـ وهل تنتظرين ماساة اشد عنفا مما كان ؟ قالت :

ـ لا شك عندي في ان القلم قد تحطم على صفحة من صفحات القدر !

ـ ...

القاهرة سلامة خاطر

دون وداع

●

ذكراك تتحلق .. تلتوي
كغمامات الدخان
فتحطم فرحتي ...
بالامس ...
حملوا الي الياسمين
بعد شوق الزمان
بعد نذر سخي
ولكن لمن أزف الياسمين ؟ ...
فقد رحلت
بعد ان قلت : ....
ساذهب الى المنحنى ...
واشكو الى النهر غيابك ...
حين تطوي ثيابك ..
حين يذوي شبابك
حين ترحل ..

*

وتركتني بلا وداع ...
كم وددت ان تكوني بقربي
فالشباب انفقته
في احتطاب الجذوع
وبدات أصنع زورقي ...
وأوشك ينتهي
ولكنك تركتني
يا اخت وزورقي
دون ... دون وداع

حلب محمد ثابت ابو دان

حبيبتي
ومحارات البحار
السبعة

يوسف عايدابي

الخرطوم ـ السودان

من قلبي لو تنزاح الاحزان السوداء
لجلبت الافراح
من سابع بحر لجلبت الافراح ..
حبـّة عيني .. من اجلك
فمحاراتي .. سبع بحار ضمتها في ليلك
لما طفر الدمع الى عينك :
« لن ينمو هوانا ! ! »

*

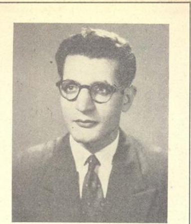
لكن .. من اعماقي عانيت لكي أرضيك
نذرت لشيخ لو يرضيك ..
فأغوص ..
اظل اجوب بحار الموت ..
اروم محارات ضمتها بحار الصمت ..
ماذا لو أسقط لي موسى عصاه ..
لو انشقت للاشواق بحار هواه ..
لجمعت محاراتي
ولشارفت الفرحة خفقاتي .
ولفرحت أمي من تعويذة شيخ تدعوه (احمد)
اخشى يموت الخفق ..
اخشى لو يخمد ..
وحجابي أصفر مشدود كالخفق اليَّ
يغرقني .. او يغرق بيَّ ..
ويزف رجاء الاحباب .. يشق اليَّ الصخر ..
لو موسى بعصاه يفلق لي دربا في البحر ..
آه .. لجمعت محاراتي
من أجلك ... لو يرضيك ... حياتي

*

لو ارضيك ..
من قلبي لانزاحت احزاني ..
احزاني السوداء
لجلبت الافراح فراشات بيضاء
لنزحت أسائل اعماق البحر
محارات من أجلي .. لو ترضين

*

في الاعماق اعاني
لو ارضيك ..
كي ينمو هوانا في عينيك
لو تنزاح الاحزان ..
لو تضحك لي عينان ..
لشراع الرحلة عينان
لأقمت سفينا في البحر
ان رمت محاراتي عدت الى الشطئان
ان رمت الافراح رجعت الى الشطئان
يغمرني فيض حنان من بعد الاحزان !



محمد رجب البيومي

اثر الزيات في اليقظة العربية

بقلم تلميذه وصديقه

محمد رجب البيومي

نال الاديب الكبير الاستاذ احمد حسن الزيات جائزة الدولة التقديرية للادب هذا العام فتحدث تلاميذه الكثيرون بهذه المناسبة عن مناحي أدبه ، واهداف رسالته، ورأيت ان الم باحدى هذه النواحي، كتلميذ عرفه ودرسه. وكعضو في اسرة تحرير مجلته التي سيطرت على الحياة الادبية في مصر مدى متطاولا تجاوز العشرين من الاعوام.

وهانذا الان اقصر الحديث على دوره الهام في اليقظة العربية . لان الرجل قد كافح في هذا المجال كفاح الصابرين الاباة ، فلقي من المصاعب مادية وادبية ما كان يكفي لتعويق جهاده لولا ما وهب من العزيمة المثابرة والصبر المديد .

لقد نشأت الرسالة في مطلع عام ١٩٣٣ لتكون ديوان العرب المشترك ورمز النهضة الفكرية في الامة العربية ، والهاتفة الاولى بآمال العروبة وآلامها ، وكان الشرق العربي في هذه الحقبة الحرجة يرزح جميعه تحت نير الاحتلال من انجليزي وفرنسي وايطالي ، ولكل دولة مستعمرة دعاتها المغرضون ممن ينشرون عوامل التفكك في الامة العربية تحت ستار الثقافة المتطورة ، فيدعون في كل قطر من الاقطار الى انشاء ادب قومي يقف عند حدود الاقليم دون ان يتعداه الى سواه ، ويرجفون بكل من يحرص على جمع الشمل ، وتكتل القوى ، اذ هو في رأيهم متخلف لا يقدر حساب الزمن ولا ينظر الى واقع الامر نظرة المتيقظ المترقب !!

وقد انخدع كثير من اولي الراي بما لقنوه من الاراجيف، فانطلقت السياسة الاسبوعية – وكانت قبل ظهور الرسالة صاحبة الاشعاع الفكري في الافق المصري – تثير مسألة القديم والجديد لا على انها صراع طبيعي في تواريخ الآداب المختلفة في مدها الطويل ، ولا على انها دعوة الى التطور المعتدل الذي يستمد نموه من ماضيه ، بل على ان المراد بالقديم قديم العرب بخيره وشره وحلوه ومره والمراد بالحديث حديث اوربا باصالته وزيفه وارتفاعه وانحداره .. حتى اوشك ان يكون الرجوع الى التراث العربي معرة زائفة ، وقد زاد اضرام النار وقودا ان يكون للفرعونية دعاتها المغرضون لا على ان التاريخ الفرعوني يصح ان يكون مادة للالهام والسمو والدفع المتوثب بل على انه يجب ان يكون محل التراث العربي في التوجيه والايحاء ، والارتكاز ، فاذا وجد من يبرز طابع العروبة الاولى في شتى اقاليم العربية فهو محافظ قديم لا يتطور ! وقد كان من المقدر لامثال هذه الدعوات ان تجني ثمارها الخطيرة لو لم تنشأ الرسالة لتقول لهؤلاء جميعا انتم مخطئون !!

حشد الاستاذ الزيات جهده الملحاح ليجعل من العروبة رسالة يجتمع حولها ادباء العربية في كل مكان فرسم لمجلته هدفا بيّن المعالم واضح الاتجاه ، وانت حين تريد ان تقارن بين الرسالة واخواتها في مصر كالهلال والمقتطف والثقافة والبلاغ الاسبوعي تجد ان الرسالة قد بزت هؤلاء جميعا بوضوح هدفها العربي المحدد ، اذ ان ما سواها من المجلات يضم بحوثا ثقافية تلتقي وتفترق دون منحى معلوم اما صاحب الرسالة فقد جعلها اداة البعث الروحي والادبي والسياسي في الامة العربية ، واخذ يستضيء بهدفه المثالي في جميع ما ينشر ويدع من الابحاث ، حتى اضطر الى التخلي عن كتاب لامعين لا يؤمنون بفكرته الاصيلة ، وقد يعلم الكثيرون ان الدكتور طه حسين قد اشترك عامين في تحرير الرسالة ثم تركها لا لنزاع شخصي بينه وبين الزيات ولكن لتعارض الهدف بين الاديبين الكبيرين ، فالدكتور طه في هذا المدى البعيد لم يكن من المؤمنين بالوحدة العربية، وكانت كتاباته واحاديثه الصحفية تدعو الى ما يوهي الاسباب بين مصر وعروبتها الوطيدة ، حتى اضطرت الرسالة ان تجاهد آراءه مجاهدة كبيرة في تاريخ حياتها المديدة واذكر ان الاستاذ ساطع الحصري قد تكفل بالرد على الدكتور في هذه الناحية باعداد مختلفة من مجلة الرسالة نذكر منها الاعداد ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣١٦ وما بعدها من الاعداد وقد دار النقاش حول امكانية الوحدة العربية وحول طبيعة الاتفاق بين العقل المصري والاوربي مما اسهب الدكتور في تقريره لينأى بمصر عن محيط الامم العربية !! وقد اضطر الدكتور الى

أن يتحفظ في ردوده بعد ذلك ، دون أن يتخلى الاستاذ الزيات عن معارضته الحاسمة ، حتى سمح لكاتب مخلص ان يقول عن الدكتور طه بالعدد ٣١٨ :

« وديدنه ان يأخذ الراي عن طريق السماع والاتباع ، فهو لم ينظر الى نفسه باعتباره رجلا موطنه الشرق ولغته العربية ودينه الاسلام بل نظر فيما سمع من كلام الاوربيين، واتبع ما قالوه بلا تمحيص وكان خيرا له لو رجع الى بيئته وسار مع طبيعته ونظر في نفسه واستوحى ما عليه النظر المجرد والطبع السليم » الى غير ما قال مما يغلو ويشتد في معرض الحجاج والتفنيد !

وإذن فقد كان اقصاء الدكتور طه من تحرير الرسالة — كما اعتقد انا شخصيا — ومجيء الاستاذ مصطفى صادق الرافعي مكانه ، عملا يفرضه الهدف المحدد الذي آمن به الزيات ، ورأى ان تتجرد الرسالة للعمل على تحقيقه ، مؤثرا سمو الغاية الشريفة على مودات الاصدقاء !!

ظهرت الرسالة بصيحتها العربية العالية ، فأبطلت مزاعم المرجفين من انصار القوميات المحدودة ، وجمعت الامة العربية على هدف معلوم موحد !! ولم تكن محاربتها للقومية الضيقة تعني الحط من ادوار هذه الدول في التحرر السياسي والادبي ، ولكنها تبارك هذه الادوار وتنميها بكل اعتناء لتجعل منها جميعها جداول متنوعة تسير في اتجاه واحد حتى تصب في النهر العربي الكبير! فلكل دولة ان تزهو بماضيها القومي وادبها الشخصي ليكون منه ومن امثاله في كل اقليم ما يرفع لواء العروبة في مجال السياسة ويزيد الثقافة الفكرية في مجال الادب والعلم، وكان الزيات صادقا حين هاجم الفرعونية المغرضة مهاجمة صارخة فكتب يقول في بعض الافتتاحيات — اكتوبر سنة ١٩٣٣ :

« حلا لبعضهم ذات يوم ان يكون بيزنطيا يجادل في الدجاجة والبيضة ايتهما اصل الاخرى فقال على هذا القياس افرعونيون نحن ام عرب ؟ انقيم ثقافتنا على الفرعونية ام نقيمها على العربية نعم قالوا ذلك القول وجادلوا فيه جدال من اعطى ازمة النفوس واعنة الاهواء يقول لها كوني فرعونية فتكون او كوني عربية فتكون ثم اشتهر بالراي الفرعوني ثلاثة او اثنان من رجال الجدل وساسة الكلام فبسطوه في المقالات وايدوه في المناظرات ورددوه في المحادثات حتى خال بنو الاعمام في العراق والشام ان الامر جد ، وان الفكر عقيدة وان ثلاثة من الكتاب امة ، وان مصر راس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات والمساجد معابد، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة ، الى ان قال : لا تستطيع مصر الاسلامية الا انتكون فصلا من كتاب المجد العربي لانها لا تجد مددا لحيويتها ولا سندا لقوتها ولا اساسا لثقافتها الا في رسالة العرب اما ان يكون لادبها طابعه ولغتها لونه فذلك قانون الطبيعة ولا شأن لمينا ولا ليعرب فيه ، لان الآداب والفنون ملاكها الخيال ، والخيال غذاؤه الحس ، والحس موضوعه البيئة والبيئة عمل من اعمال الطبيعة يختلف باختلافها في كل قطر وقديما كان لون الادب في الحجاز غيره في نجد وفي العراق غيره في الشام ، وفي مصر غيره في الاندلس دون ان يسبق هذا التغاير دعوة ولا ان يلحق به اثر »

على هذه الاصول الوطيدة ارسى الاستاذ الزيات قواعده، وطفق يعمل في الميدان الشاق الذي حدد اتجاهه ، وهيأ وسائله ، وكان منحاه الواضح ان يدور في فلكين متعاقبين فهو يتجه الى الماضي في سجله الحافل المليء والى الحاضر في اساه المحزن الاليم ، ليجعل من الاول وسيلة الى انعاش الثاني ومده بالمقومات الناهضة فينهض من عثرته ويسير الى مستقبل وضيء بسام !! اجل كان الحديث عن ماضي العرب مبعث عزة وسعادة للقراء فانطلقت صفحات الرسالة المتعاقبة تتحدث عن ابطال العروبة السالفين في السياسة والادب والعلم والحضارة والانشاء ، وعن ادوار العرب المثمرة في كل قارة من القارات !! ونظر الذين يحسبون ان الامة العربية جريحة عليلة ، لا تستند الى مقومات ناهضة او تسعد بتاريخ مشرق فوجدوا انفسهم واهمين مخدوعين ، فهم يقرءون اعداد الرسالة المتوالية فيجدون مئات الابحاث المركزة الدسمة ، المؤيدة بالمصادر، المعتزة بالاقناع والبرهان تتحدث عن امثال هذه الموضوعات.

جلال الفلسفة العربية ، ثورة العرب الكبرى ، الطب عند العرب ، الفلسفة عند العرب ، الحركة الفكرية لشباب العروبة، علم الحيل والعرب، علم المثلثات والعرب، المخترعون من العرب ، الفلك عند العرب ، الحرف العربي والحرف الافرنجي ، الموسيقا العربية، واكلف نفسي المحال حين استعرض عناوين هذه البحوث او اسرد مئات العظماء من نابغي العلماء الذين درسوا دراسة شافية على صفحات مجلة الرسالة كالفارابي والكندي وابن الهيثم ، وابن ماجد، وابن قرة وابن حزم وجابر بن حيان وابن سينا وابن يونس ونصير الدين الطوسي والبيروني والخوارزمي والرازي ومئات امثالهم سطعت نجومهم في العلم والادب والتاريخ ، ولكني اوجه النظر الى عدد واحد فقط من اعداد الرسالة — « ١٩٦ » لنجد فيه ما يلي : (١) نهضة العلوم الطبية عند العرب (٢) علوم القدماء عند العرب (٣) علم التاريخ عند العرب (٤) من مواقف العروبة ! واذا كان ذلك كله في عدد واحد فماذا يقول الكاتب في اكثر من الف عدد صدرت عن دار الرسالة في هذا الاتجاه ! على اني تعمدت ان اذكر هنا بعض موضوعات العلم والفلسفة فقط وبعض اعلامها الكبراء فحسب ، فاذا انتقلت الى السياسة والتاريخ والادب بين موضوعات المجلة ، فقد وجدت تاريخ العروبة المليء في مدى اربعة عشر قرنا يسجل في صفحات الرسالة ! ولن تجد توجيها الى الحضارة العربية يفوق هذا التوجيه من رائد بطل كالاستاذ الزيات يراجع كل اسبوع عشرات الابحاث ليختار

منها ما يغذي العقول، وينشىء التاريخ الحضاري للامة العربية من جديد، بعد أن عفى عليه ظلال الجهل والكسل والاغفال.

هذا بعض حديث الرسالة عن الماضي ، اما حديثها عن الحاضر فلم تدع قطرا من اقطار العربية الا اسهبت في الحديث عن امراضه وعلله ، وحاربت ما يجثم عليه من طغيان الاحتلال وظلام الجهل ومخلفات القرون ! فانت تجد في مجلداتها الاربعين تاريخ مصر وسوريا والعراق وفلسطين ولبنان والحجاز واليمن وتونس والجزائر ومراكش والسودان وبرقة وسائر بلاد العروبة دون استثناء ، تجد هذا التاريخ محللا تحليلا علميا يكشف رهبة الواقع ويرسم طريق النجاح ، وقد يقول قائل ان جميع الصحف تمتلىء بمثل هذه البحوث في كل قطر من الاقطار ولكننا نظلم الرسالة ظلما فادحا حين نقرنها الى الصحف السريعة لان صاحبها كان لا يقبل غير بحوث المتخصصين من ذوي الاطلاع والمقدرة على التحليل والاستنتاج ، فقد كانت تفد اليه في الموضوع الواحد عشرات الابحاث وهو يقرؤها وحده ليختار الجيد الحافز المستقيم ! وتلك مشقة مستترة لا يحسها غير اصحاب الرسالات ممن يشرفون على النشر المفيد ، وقد رايت بعيني اكداس البريد في دار الرسالة تتزاحم وتتراص ، والزيات ينظمها في اعتناء ويحدد لكل بريد وقتا مرسوما ، ثم يختار الجيد الصالح دون اعتبار لغير الهدف الموقظ ، والبعث المترقب ، والاصلاح النزيه ، ولم تكن الرسالة تحارب النزعات الشعوبية في مصر وحدها ، ولكنها تعارض كل ما ينجم في الدول الشقيقة من امثال هذا التطرف ! وما اكثر ما كان ، سالكة مع الاشقاء مسلك الرفق واللين اذ تعلن رايها العربي بالتي هي احسن مهما كان المعارض متهورا نزقا يذهب مع الرعونة مذهب الشطط والجموح ، واذكر ان كاتبا شن في مجلة العاصفة اللبنانية هجوما عنيفا على الادب المصري فوصفه بالثرثرة والاضطراب واعلن انه في حاجة الى الصقل والتهذيب اذ هو اشبه بالحجارة التي لم تنحت اذ ان رجاله حائرون بين التقليد والتجديد ! فنقل الزيات جميع ما ذكره الكاتب ، ولم يتعرض في الرد عليه الى انتقاص الادب اللبناني وازدرائه وهيهات ان يفعل، ولكنه قال بالعدد الثامن من سنة ١٩٣٣

« ان هذا الزمان لم يدع في ايديكم وايدينا من المجد المشترك الا هذه اللغة وهذا الادب فلم تأبون الا ان تقسموهما على البعدان ، وتوهنوا اسبابهما بهذا الهذيان، تلك نعرة بدوية مملولة ، والعاصفة التي اثارت هذا الموضوع الجاهلي تتشوق بالتجديد فهل علمت ما يشبه ذلك بين الادباء في فرنسا وسويسرا وبلجيكا ، او بين الادباء في انجلترا وامريكا وماذا يعزها ان تركتنا متآخين متحابين على هذا المنهل الباقي ننعم بريه ومائه ، ونحرص جميعا على فيضه وصفائه »

بهذا الاتزان الهادىء العاقل كان الزيات يدفع الشعوبيات الحديثة دون اعتساف او مغالاة ، حتى في أحرج ما يدعو الى الاعتساف ! اذكر ان الاستاذ شارل القرم قال عن اللغة العربية في ديوانه « الجبل الملهم » « اننا ننطق بلغة جاءت من آسيا فرضها علينا القتل والرعب ان هذه الزهرة الصحراوية تقبلتها حدائقنا تحت ضغط حكومة قاسية » ومع ما في هذا القول من الرعونة فقد تحفظ الزيات بازائه كمصري يريد جمع الشمل ، وترك المجال للاستاذ خليل هنداوي ان يعقب بما يريد بمنطقة المعتدل، وهكذا كان يفعل ازاء حملات الاستاذ زهير زهير بمجلة المكشوف ، ونحن نشير الى رده المهذب بالرسالة «١٩٥٣» كنموذج لهذا الاعتدال والحق ان هذا المسلك الاخوي الممتاز كان ذا اثر قوي في التفاف القلوب حول الرسالة واستجابة الادباء لرغباتها ، اذكر ان اديبا سوريا كتب في السنة الرابعة « ١٩٣٦ » يحلل الحالة الادبية في سوريا ثم دعا ادباء كل اقليم الى الحديث عن الحالة الادبية لديه في موطنه ، فما كاد مقاله يظهر بالرسالة حتى اخذت تتقاطر على الزيات عشرات البحوث عن الحالات الادبية في لبنان والعراق وليبيا والسودان ومراكش وتونس والحجاز وشرق الاردن وفلسطين وغيرها ، وقد نشر منها ما يفي بالغرض على وجهه الصحيح وقارىء المجلد الرابع من الرسالة يرى هذه البحوث مستوفاة مستفيضة تدل على مكانة الرسالة قبل ان تكشف عناصر موضوعاتها ، وهي بذلك برهان واضح يطمئن الزيات في سبيله الجاهد ويمده بذخر ثمين !

ولو اراد باحث مؤرخ ان يسجل حركة التحرير في قطر من اقطار العروبة ، فعليه اذا ابتغى الفائدة الدسمة ان يراجع ما كتبته الرسالة عن هذا القطر ، اذ ان مآسي الاحتلال في تونس والجزائر ومراكش وليبيا ومصر والسودان والعراق وفلسطين وسوريا ولبنان لم ترسم رسما صادقا كما اتضحت في مجلدات الرسالة حتى ابطال المقاومة من امثال عبد القادر الجزائري ومحمد عبد الكريم الخطابي وعمر المختار وفوزي القاوقجي واحمد عرابي وكاظم الحسيني والشيخ شامل القوقازي وابراهيم هنانو وسعد الله الجابري وعشرات من هؤلاء الابطال ، اقول حتى ابطال المقاومة الباسلة قد وجدوا على صفحات الرسالة من يجعلون وقائعهم المشاهدة قصصا عالية للبطولة وحافزا دافعا للحرية والاستقلال ، ولا اذكر ان مجلدا من المجلدات قد خلا من ابحاث كثيرة عن الصهيونية والوطن القومي لليهودية العالمية والانتداب الانجليزي مما يخص مأساة فلسطين من لدن ظهور الرسالة حتى احتجابها ، وانا لنذكر هنا مع الاستاذ الزيات بكل فخر واعتداد ابطال الفكرة العربية من امثال عبد الوهاب عزام واحمد رمزي وساطع الحصري وزكي مبارك ويوسف هيكل ومصطفى الرافعي وفلكس فارس ونقولا الحداد ممن كتبوا في المجال العربي كتابة هادفة مستنيرة انقذت

الوعي واوقدت الشعور ، وكثير ما هم !

على ان صاحب الرسالة نفسه قد استطاع ان يصوغ افتتاحياته الاولى حداء الركب ، ولحق القافلة السارية لانه باسلوبه الشعري البليغ قد جعل النثر يقوم مقام القصيد في الهاب العواطف واشباع الوجدان فما تكاد تلم نازلة عربية الا وتجد صداها المجلجل في افتتاحيات الرسالة وقارىء وحي الرسالة باجزائه الاربعة لن يعجزه ان يستمع الى هذه الاحاسيس النبيلة تظهر في عبارة قوية وتتجه وجهة ناهضة ! وقد شاهدنا من طلبة المدارس في مصر وسوريا والعراق من يحفظها جميعها كما يحفظ الاثر الخالد من كتاب كريم ! وقد كنت وانا تلميذ مبتدىء استمع زملائي من طلاب المعاهد الدينية يرددون قول الزيات كقصيدة جميلة مطلقة القوافي والاوزان :

« على ضفاف الوادي وهضاب فلسطين ورياض سورية يثور تاريخ ويغضب مجد ويستغيث مظلوم ، على الوطن الذي ورفت على نيله اول حضارة ، وفوق البلد الذي هبط على طوره اول دين وفي القطر الذي انبثقت من ساحله اول ثقافة تمتحن الحرية بمن فرضوا على الملك اول دستور وتمتهن العدالة ممن حملوا الله اول كتاب ، وتبتلى الانسانية بمن اعلوا للانسان اول حق ، على هذه الاقطار الثلاثة التي شع منها السلام والخير يستكلب الطمع ويستجر الهوى ، وينفجر البغي فالمفاوضات وعيد ـ والاحتجاجات حديد ـ والمواعيد مراوغة ، كأنما عي المنطق من طول ما مارس العلم ، ومات الضمير من كثرة ما دارس الخلق ، وزهق العقل من شدة ما زاول القانون، في القاهرة واورشليم ودمشق شباب يحمى على لذع البنادق ، ودم يفور على مس الاسنة ، وامل يشرق في الوجوه الوضيئة ، وطموح يومض في العيون الرغيبة ، وماض تميز في ابهام الدهر يتمثل في الاذهان الصافية ومجد تأثل في اربعة عشر قرنا يعصف بالنفوس الفتية ، فماذا تصنع مدية اللص في قلب تدرع بالايمان وماذا تبلغ سطوة الباطل من حق مسجل في لوح الزمان ... »

اجل كنا نحفظ هذه الاناشيد وامثالها مما يتزاحم في صفحات الرسالة ويتأنق في وجهها النضيد ! واذا كانت الاعمال بالنيات كما يقال فان دعوة الزيات الى اليقظة العربية قد وجدت صداها البعيد في كل مكان ينطق بالضاد ، فاقبل عليها شباب العرب قارئين مستوعبين وذوو الاقلام المفكرة كاتبين ناقدين ، واصبحت بين عشية وضحاها منارة الفكر في مصر يعشو اليها عشاق البعث العربي في كل قطر من الاقطار ، وصارت الرسالة باعتراف الجميع رسالة العرب لا رسالة مصر ، واجمع مقرظوها من ارباب الصحف ورجال النقد على صواب طريقتها ، وصدق نيتها وحسن بلائها في هذا المضمار ، وتوافدت على الاستاذ الزيات مئات الرسائل هاتفة ملبية ، فكان يطوي اكثرها وينشر القليل مما استحلفه على نشره اقل الكاتبين ثناء واوجزهم عبارة ، ومن ذلك ما نشره الاديب الحجازي الاستاذ احمد علي المكي بالعدد ٥٧ :

« وصدور الرسالة في مصر لم يكن حاجزا دون انتشار صداها في عموم البلاد العربية وابنائها ولم يمنعهم البون الشاسع والحواجز الجغرافية ان يجعلوها منبرا عاما لنشر ثمار قرائحهم الوقادة وعصارة افكارهم الثاقبة ، ونتائج تجاربهم العلمية ، خذ اي عدد من اعدادها الثمينة فلن تجده الا عنوانا للرابطة الادبية العربية الوثيقة ، فهذه مقالة لكاتب مصري بليغ ، وتلك قصيدة منشأة او مترجمة لشاعر في سوريا او العراق والموصل من غير ان يتعصب لطائفة مخصوصة ـ شأن كثير من المجلات ـ او تقدم كاتبا وطنيا (يريد مصريا) على غيره وهذه الظاهرة الجليلة التي امتازت بها هذه المجلة تحملنا على ان نسميها بحق مجلة العالم الادبي العربي ! ! »

على ان النجاح الذي احرزه الاستاذ في تحقيق هدفه كان عزاءه البالغ فيما يعترضه من صعاب ، اذ ان الرسالة لم تجد من الحكومة المصرية اذ ذاك ما يسعف بالعون الادبي فضلا عن العون المادي ، بل ان كتب الزيات على بلاغة ادائها وسمو اهدافها لم تكن مقررة بالمدارس المصرية جوار ما تزدحم به مكتبات المدارس والجامعات من جيد التأليف ورديئه حتى جأر بالشكوى لذلك اناس ممن يجدون في ادب الزيات تغذية دسمة للناشئة وكانت هذه الشكاوى المتعددة تعلن على منابر الصحف اليومية كالبلاغ والاهرام دون ان يجد الزيات فائدة ما في نشرها بالرسالة الا فيما ندر من الظروف ! ! وقد تكاتف مع حكومات العهود الماضية في تثبيط الرسالة نفر من المتعالمين لا يرحبون بالادب البليغ ، ومن المغرضين لا يشجعون الدعوة الى العروبة . اذ يرون في تاريخها الادبي الحافل نتاجا لعصور الظلمات وعهود التخلف ، وقد دافع الاستاذ عن مذهبه البليغ المتحرر ، وعن قصده العربي الهادف حين قال في بعض افتتاحيات مجلته (١٣١) :

« قالت الرسالة لهؤلاء ما دمتم تكتبون بالعربية فلا بد من فنها وادبها ، وما دمتم تعيشون في الشرق فلا بد من الهامه وطابعه ، اما ان تحاولوا طمس حدود الارض ، ونسخ قوانين الطبيعة ، وقطع سلسلة الزمن فذلك مجهود لا يضعه الناس الا في قرارة الحمق .

قالوا اننا ننشر ثقافة العصور المظلمة ونجدد اساليب البيان القديم ، يريدون بالعصور المظلمة عصر الرشيد وابنه المأمون في آسيا وعصر الناصر وابنه الحكم في اوربا ، وعصر العزيز وابنه الحاكم بأمر الله في افريقيا ، وهي العصور الثلاثة التي جلت عن الارض دياجير القرون فكشفت الافق للانسان ، وهيأت العقل للعلم ، وراضت البربر على الحضارة ، وهم في ذلك يقلدون الكتاب الاوربيين في نعتهم عصور الجرمان بالظلام كأنما ظنوا قبائل البربر من جزيرة العرب !

ثم يريدون باساليب البيان القديم تلك الاساليب التي تجري على قواعد الفن فلا يشوبها لحن ، ولا تتعاورها ركاكة ، قطعوا انفسهم عن الموارد الروحية لهذه اللغة فصاغوها من حروف الهجاء لا من الاعصاب والدماء ثم آذوا فطرة الانسان فجعلوا قوة الاسلوب عيبا وجمال الصياغة نقيصة » .

ومن الطريف ان كثيرا ممن دعوا الى الادب الفرعوني بمعناه المتحيز المتميز قد انصاعوا لدعوة الرسالة ، اذ راوا في سعة انتشارها وقوة توجيهها ما حفزهم على تعديل آرائهم ، حتى راينا كاتبا سامقا كالدكتور محمد حسين هيكل يتجه وجهة عربية خالصة في مؤلفاته الاخيرة عن محمد واصحابه بعد ان ادرك عقم ما يدعو اليه من ادب اثري يستلهم المسلات والهياكل وحدها دون ان ينطلق الى الآفاق العربية التي تعمل على اذكاء الشعور العربي في شتى مرابعه المتنائية ! وقد لاقت مؤلفات هيكل من الرواج ما جعله ينهج نهج الرسالة في كتاباته الاخيرة دون ان يجبن عن مواجهة الواقع بشجاعة وانصاف ! اما المغرضون من ذوي الاهواء فقد عز عليهم ان تنتصر الرسالة في مجال الدعوة العربية ، فانطلقوا يحاربونها ظالمين غير منصفين ! وذهب الاستاذ سلامة موسى ابعد مذاهبه في الارجاف بالرسالة وكتابها حتى سمح لبعض حوارييه ان يقول على صفحات المجلة الجديدة اغسطس سنة ١٩٣٦ :

« ومن الامثلة في ادبنا المعاصر مجلة الرسالة والمجلة الجديدة ، ففيهما يمكن للقارىء ان يقارن بين ادب الفقر والمرض في الرسالة ، وبين ادب الغنى والصحة في المجلة الجديدة ، بين ادب الذلة والعبودية والانحطاط في الرسالة ، وادب التفتح النفسي والاستقلال والحرية والارتفاع في المجلة الجديدة . يمكن للقارىء ان يرى اسوأ ما يخرجه الشرق في الرسالة وانبل ما ينتجه الغرب في المجلة الجديدة ، يمكنه ان يرى مادية الشرق (كذا) في الرسالة وروحانية الغرب (كذا) في المجلة الجديدة » . هذا الى تهور مسعور في الانتقاص من قيمة الجامعة العربية والدعوة اليها مايو سنة ١٩٣٦ ، وتهجم صارخ على نشر الآداب العربية القديمة اكتوبر سنة ١٩٣٦ والحديث عن شعراء العرب وابطالهم تأليفا ومحاضرة وتدريسا مايو سنة ١٩٣٧ ، بل ان الدعوة الى القديم والجديد التي تحدثنا آنفا عنها في صدر هذا البحث قد انقلبت على صفحات المجلة الجديدة الى عراك بين ما سماه الاستاذ سلامة موسى باليسار واليمين فهو يقول عن سياسة مجلته ابريل سنة ١٩٣٦ :

« وهذه المجلة لا يمكن ان تتهم بانها يمينية ، اذ هي تمثل اليسار في الثقافة ويكفي القارىء ان يذكر الموضوعات التي عالجتها سواء بمقالات او رسائل او كتب، تشمل نفسية وضبط التناسل والبشرية ونظرية التطور والتعقيم والتفسير الاقتصادي للتاريخ والحضارة الصناعية والوطنية والاقتصادية والسيكلوجية الحديثة وفرويد والتجديد في الادب الانجليزي والنهضة الاوربية والقصص الروسية مما يعد في نظر المحافظين ثقافة اليسار السيئة»

والغريب ان هذه الموضوعات التي وصفها سلامة موسى باليسارية قد بحثت جميعها في مجلة الرسالة بحثا مثاليا لا ترتقي اليه مجلته بحال اذ ان ما نشر بالمجلة الجديدة تلخيص مدرسي مبتور اما بحوث الرسالة في هذه المناحي جميعها فاكاديمية منهجية لدكاترة متخصصين يربطون الاسباب بالنتائج فالرسالة تضم في كل عدد من اعدادها رسالة العلم ورسالة الاجتماع ورسالة المراة مما يحقق وجهة صاحبها حين اختار لها ان تكون الصلة الصحيحة بين الشرق والغرب !! اما حكاية القصص الروسية والادب الانجليزي فيكفي ان نذكر مجهود مجلة الرواية التي اصدرها الزيات سنوات متتالية لتؤدي رسالتها في هذا الغرض واخشى ان اسهب في تعداد مباحث الرسالة عن الحضارة الاوربية فاخرج عن الموضوع الذي كرست عليه هذا المقال ، فلينطلق دعاة اليسارية الى فهارس الرسالة وحدها ! لتكون صاحبة القول الاخير .

وبعد ، فقد عاش الاستاذ سلامة موسى حتى راى حلم الرسالة في البعث العربي يتحول الى حقيقة واقعة ، وعاش الاستاذ الزيات حتى نال الجائزة التقديرية للدولة رمزا لتقدير نضاله وتزكية لتعضيد كفاحه ، وانا لنرجو له ان يقر عينا بما راى من غرس ينمو ، وبذر يؤتي اكله طيبا مباركا بعد ان تعهده بالري والتشذيب فاصبح روضا يانعا ممتد الافياء عذب القطوف ! !

الفيوم — محمد رجب البيومي

ما بيني وبينك

كتمت هواي ما بيني وبينك
أدر بالله عن عينيَّ عينك
ولا تنظر اليَّ وتفتقدني
بحسنك كل حسن الناس دونك !
أرى الدنيا على شفتيك غنّت
مزقزقة وخلت الكون كونك ..
فانك اسمر يا نور عيني
بلون التبر كم احببتُ لونك
يحقُ لك التاله والتباهي
على أهل الهوى فارفع جبينك !
ولو جاز اقتسام القلب هذا
قسمت القلب ما بيني وبينك ! !

زحلة ـ لبنان — رياض المعلوف

حسن كامل الصباح

ألقيت في لبنان بمناسبة ذكرى المخترع اللبناني المهندس حسن كامل الصباح الذي سجل في الولايات المتحدة التي هاجر اليها نحوا من ٨٠ اختراعا عالميا ، ومات وهو بعد في الاربعين من عمره اثر حادث سيارة .

موطن المجد كل ارضك « عامل » … تنبت الصيد والغزاة البواسل
أي صقع في الكون ما لك فيه … شرف السبق من تليد وآثل
الجوالي التي بعثت بعيدا … لم تزل تطلب البعيد جوائل
اوشكت تبلغ النجوم وتجلو … غيهب الليل عن مناكب آفل
من كصباحها ربيب علاها … يوم تشتد حالكات النوازل
كاد لو يسعف الزمان قليلا … يجمع الشمس في انامل سائل
انما العقل من سنائك فيض … عفوك الله كيف يجحد عاقل
يا اخا العلم من بمثلك هاد … يعربي السماح حلو الشمائل
كان يشجيك ان تظل البوادي … خاليات على اتساع المنازل
كم تمنيت ان تطير اليها … بالذي يبعث القفار خمائل

* * *

غير ان الحياة اقصر من ان … يجمع الصبح بين ساق وناهل
اي فرق ما بين سالب عيش … ومفاد بكل رفد ونائل
كنت في الغوث كالغمام سماحا … يرتجي ودقه مقيم وراحل
لم تفاضل ما بين قوم وقوم … يوم أعطيت في سخاء الهواطل
كم تعهدت من صنيع جميل … وترفعت عن صغارة جاهل
ليت شعري أكان موتك غدرا … أم قضى الله ان تغول الغوائل
ما على الليث ان يموت جريحا … وهو في حومة الصراع يصاول
يا اخا الصبح يا ممني المعالي … ما احتوى الليل مثل بدرك كامل
ليس في معجم السلامة فرق … بين حال من الغصون وعاطل
انما الغرس بالثمار ومن لي … بغراس على الزمان حوامل

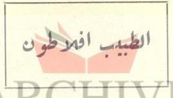
* * *

كيف تخشى التراب حبة بر … هو ان مسها استحال سنابل
يا اخا الفضل ليت فرعك يزهو … ابد الدهر في ندي الغلائل
انت من امة نمتها المعالي … يتحدى شراعها كل ساحل
ركبت غارب المضاء وراحت … تنشر النور في سحيق المجاهل
فاذا الحرف من جبيل رسول … يحمل الخير والجمال مشاعل
واذا جلق نشيد الاماني … نقلته الى البعيد القوافل
ايه لبنان ما اعزك طودا … حين تبنى بساعديك المعاقل
موطن الارز كم أقمت صروحا … ولكم شدت للجمال هياكل
سل بناة الصاروخ أي سلام … يتوخون من شواظ القنابل
فجروها على رجاء التصافي … فاذا الحقد يستحيل زلازل
أمعن الكل في الضلالة حتى … صيروا ساطع الحقيقة باطل

* * *

يا أخا العلم ما كهديك هدي … رب علم يحيى وآخر قاتل
كنت في الحلم والسماحة معنا … ليتني كنت في الفصاحة وائل
لست في موقف الرثاء ولكن … يذكر المرء بالذي هو فاعل
لن يؤدي البيان حقك مهما … قال في حلبة المحامد قائل

وديع ديب



للفيلسوف الامريكي « اروين ادمان »

ترجمة مبارك ابراهيم



قال الكاتب :

قال اصحابي : من الخير لك ان تجيء معنا الى البلاد الايطالية .

قلت — في اصرار — : لا ! فاني قد عقدت العزم على ان ازور مدينة « أوتن » في فرنسا . ففيها كنيسة كبرى هي آية من آيات فن العمارة .

ثم انشأت ابدع واعيد في التحدث عن سحرها وفتنتها . وعن قيمتها التاريخية الغالية . وعن جمال ريفها ومفاتنه . ثم زدت على ذلك قولي ان فرقة مسرح « الكوميدي فرانسيز » جاءت لتمثل مسرحياتها اثناء فصل الصيف . وقد كان عمدتي في اقوالي هذه كتاب « الدليل الازرق » الذي قراته بعناية بالغة .

ولما بلغت تلك المدينة نزلت في « فندق القديس لويس » وهو من تلك الفنادق التي تجعل النزيل يطيل مكثه في مدينة من المدن اكثر مما كان في نيته من قبل . وقد شهد ذلك الفندق مولد مائة من السنين . فاذا حللت به اراك اصحابه الغرفة التي نام فيها نابليون . وقد أعدت لي غرفة بدت لي وكأنها غرفة بيت من افخم البيوت ففيها كل اسباب المتعة . وفيها كذلك حمام لم تظفر به غرفة نابليون . .

وكان وصولي الى تلك المدينة وقت الاصيل فأتيح لي ان ارى الكنيسة الكبرى قبل ان يرخي الليل سدوله . ثم سرت متنزها في المراعي الخضر فاعجبتني المناظر وقلت : ان هذا هو اليق مكان اقضي فيه اسبوعين اقرأ فيهما واكتب .

وقد اشتهر ذلك الفندق بجودة طعامه وبخمره المعتقة التي شهدت ثمودا حين حل بها البلى .

وقد الجأتني العزلة وحرماني من الخلان والاهل ان اعب وانهل من تلك الخمر فأحسست اول الامر بالغبطة وقلت : لِمَ لَمْ يدلني الناس على هذه المدينة من قبل ؟ ثم احست بعدئذ وكأن النعاس يغلبني على امري . وفي صبيحة اليوم التالي وددت لو لم اكن قد سمعت باسم المدينة من قبل . فقد اضر بي ذلك النبيذ الفاخر واوردني موارد التلف ذلك الطعام الشهي وايقنت انه قد اصابني تسمم غذائي . ولذلك فقد طلبت الى خادم الفندق ان يدعو مدير الفندق الذي لقيته أمس واثنيت له على طعام الفندق وشرابه كما اثنيت على الغرفة التي نام فيها نابليون . فلما جاءني قلت وقد خفت مني الصوت من اثر التسمم — : لا بد ان في مدينتكم طبيبا .

قال : بالطبع وهو السيد الطبيب افلاطون .

قلت : يبدو انك تمزح يا سيدي فلا بد ان ليس اسمه افلاطون .

وعلى الرغم مما اصابني من تسمم غذائي فلست اصدق بوجود رجل اسمه افلاطون في مدينة « من مدن الريف » الفرنسي .

قال : ان اسمه « افلاطون » . ما في ذلك شك . وهو طبيب بارع كل البراعة . فهو يرعى بطبه اهل بيتي منذ عشرين عاما .

قلت : الي به اذا . وتذكرت ان ارسطو كان ابوه طبيبا مداويا . وان افلاطون قد اكثر واطال في موضوعات اخلاط الجسم . وان طبيبا اسمه اريكسيماخوس قد ورد ذكره في احدى محاورات افلاطون .

ولهذا فقد يكون افلاطون هذا رجلا يوثق بعلمه وطبه .

وبعد قليل سمعت صوتا قوي النبرات يقول : واين الرجل الامريكي اذا ؟ وكأنما بدا لي ان هذا الصوت يخالطه التهديد والوعيد . وقد يكون سبب هذا ان اطباء الريف ما زالوا يؤمنون بالحجامة والفصيد . .

وقبل ان يبدي ذلك الطبيب الراي في امر علتي نظر فرأى مقالة مخطوطة من مقالات الفلسفة فأنشأ يجيل نظراته في سطورها وقال انها مكتوبة بالانجليزية . ثم اضاف الى ذلك قوله ان الانجليزية انما هي لغة فرنسية اسيء هجاؤها واسيء نطقها . واسيء نحوها وصرفها . واني لمنبئك يا سيدي اني فيلسوف بفطرتي لا بالاسم الذي تسميت به فقط . واني لارجو والح ان تترجم المقالة لكي اقراها ويبدو انها شيء يتعلق بالجمال واظنك انت صاحب المقال .

قلت : نعم يا سيدي انا صاحبه .

ثم استطرت اقول ولكنني مريض ايها الطبيب .

وكان جوابه ان نظر الي نظرة وعيد فلم ار بدا من ان اقوم بالترجمة . وجلس الطبيب بجانبي وانشأت انا اترجم ارائي . وكانت تلك الاراء تتصل الى حد ما بالشعر والفلسفة وكان السيد افلاطون يستمع الي في اهتمام بالغ . وفي نهاية الصحيفة الثالثة طلبت ان اتوقف عن المضي في القراءة ولكن الطبيب نهاني عن التوقف بحجة ان في المقال بضع نقاط لا يقرها هو على الرغم من حسن صياغتها .

ثم مال بنا الحديث الى الشعر فسألته ماذا تعيب على الشعراء الانجليز وماذا تنقم منهم ؟

قال : ان الانجليز ليسوا شعراء . اريد ان اقول انهم ليسوا بالشعراء الجديرين بهذا الاسم .

قلت : الا تستثني منهم احدا ؟ وماذا ترى في شكسبير وكيتس

وشللي ووردذ ورث ؟

قال : الراي عندي ان الشعراء الانجليز يجرجرون قصائدهم فوق الامواج . وهم لا يدركون تماما ماذا يقولون. وكذلك لا يدركون تماما ماذا يعنون باقوالهم . على حين ان الشاعر الفرنسي يعرف كيف يحسن تسمية الاشياء باسمائها الصحيحة ..

ثم نظر الطبيب الي وقال : وكيف حال معدتك الان ؟

قلت : اني احس بتحسن قليل .

قال : ان هذه وعكة لا بد زائلة . ولكن هناك ما هو ادعى للاهتمام من عسر هضمك . وهو ما اريد ان اتحدث عنه قبل كل شيء . فقد دعاني الى زيارتك مدير الفندق . والحق اقول اني قد ضقت ذرعا بدعوته ذلك لان لدي عملا كثيرا على ان اؤديه . والمرضى — في العادة — لا يأبهون ابدا براحة الطبيب . وكانهم كلهم كانوا على ميعاد فاختاروا هذا الاسبوع موعدا لامراضهم . وعلى الرغم من ذلك فقد قلت لنفسي هذا سائح من امريكا لا عهد له بالطعام الفرنسي الشهي . ولا قدرة له على هضمه — وتمثيله .. وبعد فانك يا سيدي — كما بدا لي — عالم بالاثار وبالاداب القديمة . او قل عالم متنقل من علماء الاثار القديمة والاداب القديمة . اما انا فان حرفتي تحتم علي البقاء في هذه المدينة التي يقل فيها امثالك.. وآه يا سيدي لو كنت قد حللت بهذه المدينة في القرون الوسطى اذا لظهرت براعتك كعالم من اولئك العلماء . واذا لارتديت زيا خاصا . واذا لتكلمت باللاتينية . واذا لقامت بينك وبين علماء المدينة صلة من صلات العلم والادب . اما اليوم فلولا ما انتابك من عسر الهضم الذي جاء بي اليك بطريق الصدفة لما وجدت من تتحدث اليه في الاثار والاداب القديمة .. ومن الخير ان ننشيء منذ اليوم — انت وانا — جماعة تضم العارفين بالاداب والاثار القديمة. وان نجعل لها فروعا في انحاء العالم حتى اذا حل واحد من اولئك العارفين ببلد من البلاد لقي من شيعته اهلا باهل واخوانا باخوان ..

وبعد فدعني الان اقم بواجب مهنتي فافحص عن علتك واسألك الاسئلة المعتادة . واصف لك الادوية المعتادة ثم اعودك غداة غد فأجدك سليما معافى ثم ادعوك للغداء عندي في نهاية الاسبوع لاجمع بينك وبين واحد من زملائنا العلماء .. وارجو ان لا تبادر بشكري فان هذه هي الطريقة التي سوف تكثر من عدد العلماء المتنقلين .

ومما يبعث الاسى ان اللغة اللاتينية لم تبق بعد لغة عالمية . وكذلك مما يبعث الاسى ان ليس كل الناس يتكلمون الفرنسية على حين انها لغة العقل . ويمكنني ان ازيد فاقول وكذلك هي لغة الروح ..

وبعد ان وصف لي الدواء لم أر بدا من شكره ومن سؤاله كيف سمي افلاطون ؟

قال : انه اسم ابي .. ثم حمل اوراقه ومضى ..

فلما زالت الوعكة ذهبت الى بيت الطبيب تلبية لدعوته اياي للغداء فألفيته يعيش عيش العزلة فقد ماتت زوجته وارسل بابنه الى المدرسة في بلد بعيد .

أما الطعام فقد أجيد اعداده . ولكني — ولم اكن قد نسيت ما حل بي منذ ايام — قد امسكت عن كثير من الوان الطعام والشراب .

وبينما نحن نحتسي القهوة في غرفة المكتبة ادار موضوع حديثه حول الحياة العقلية في قرى الريف فقال : ان جميع قرى الريف تتشابه كأسنان المشط سواء أكان ذلك في فرنسا او في امريكا . فأنت لا بد قرات الرواية الفرنسية « مدام بوفاري » لفلوبير . وانا قد قرات الرواية الامريكية «مين ستريت » لسنكلر لويس .

وكذلك يرى الدارس للمجتمع ان في كل مدينة من مدن فرنسا وامريكا بضعة عقول ديدنها الانطلاق والحرية . وتلك العقول في فرنسا — اصحابها — في الاعم الاغلب — من طبقة المحامين والاطباء وقد ينضاف اليهم احيانا من القساوسة او واحد من الوراقين او واحد من اصحاب المكتبات .

وفي مدينتنا هذه بضعة نفر من اولئك القوم ويعيش احدهم في ضاحية قريبة من ضواحي المدينة . وارى لزاما علينا ان نزوره ، فهو عالم من العارفين باللغات . ويريد ان يصبح كاتبا من كتاب الروايات. وقد اشتغل جنديا اربع سنوات كان يحمل في جيبه اثناءها اناشيد هومير . وقد وقته تلك الاناشيد شر الموت مرة . كما وهبته الحياة دائما .

ثم قال لي طبيبي انه نظم قصيدة تحدث فيها عن مسرح الكوميدي فرانسيز . واخرج تلك القصيدة من جيبه وقرأ لي منها جزءا غير قليل . واني لقائل ان الشعرالفرنسي قد يكون احسن من الشعر الانجليزي ولكني وقد كنت متخما فقد جعلني الطعام والخمر لا اجيد فهم القوافي.

ومضت بضعة ايام ذهبنا بعدها الى حيث يقيم السيد هوفات فشربنا الشاي عنده . وقال لي صاحبي الطبيب ان هذا السيد يعيش على دخل قليل . وقد شوهت جسمه الحرب فلم يستطع الاستمرار في عمله الجامعي. وقد نشرت له من قبل روايتان . ولكنه في حقيقة الامر عالم من العلماء البارعين في علوم الآثار والآداب القديمة . وهذا العالم رجل نحيل ضئيل . شاحب اللون مبتور الذراع . فقد فقدذراعه في الخنادق . وكان حديثه يدور حول الشعر بصفة عامة وحولاناشيد هومير بصفة خاصة . وهذا كل ما بقي له بعد الحرب .

ولما عدنا الى المدينة سألنيالطبيب: اتريد ان ترى عملية من عمليات

لـم تمت

في رثاء بطل المغرب الامير عبد الكريم الخطابي رحمه الله

لم تمت ! من له كتاريخك الضخم وان مات فهو حي خالد
سفر مجد ينير عبر الصحاري ويعيد الامجاد من عهد خالد
بطل الريف يا نشيد البطولات وسيفا للبغي والجور حاصد
يا جهادا يحنو الجهاد ذليلا عنده والفدا لعلياه ساجد
علم الريف والعروبة والاسلام والنصر والعدو الحاقد
واوروبا بجمعها بالصليبيين بأقوى استعمارها والمكائد
انك الفارس المجلي اذا الروع تجلى وهابه كل ماجد
نفحة من محمد صبها الله وحزم منه وعزم وساعد
وعزوف عن زخرف البهرج الزائل ، الا للنصر او للشدائد
عد بجثمانك الطهور الى الريف لكيما يضمه ضم والد
ان فيه شوقا اله فدعه يلثم العطر من رفات العائد
وينير السبيل للنشء منه ويصوغ الجهاد اغلى قلائد
بحياتي يا واهب المغرب النصر ومدني من راحتيه الفراقد
لا وحق الاخا ، سواك الذي يرثى وتبكيه بالدماء القصائد
ليس للشعر في رثائك باع ما الذي قد يقوله فيك واجد
كلما رمت ان أفي بعض حق لك خارت من البيان المساند
أفيرثى من بشر الصحب طه بعلاه مذ بشرته الشواهد !
عد الى الريف حيث صلت وجالت بالمجلين من بنيك الجرائد
وانس ما قد حملته من عناء وانس ما قد كبّدته من شدائد
يا بني المغرب الحبيب وانا رغم بعد الحدود كف وساعد
جمعتنا الالام والدين والدم والضاد واتحاد العقائد
فاتركوه لا تنبشوا الجرح فيه رب جرح ادماه باك وعائد
واندبوه اذا اردتم بكاه بأناشيد وحدة وتوادد
واقسموا عند قبره ان تردوا وحدة العرب انه خير شاهد

الشارقة صقر بن سلطان القاسمي

البتر ؟ ثم مضى يقول : ان علي ان اعمل الان واحدة من تلك العمليات. فالفيلسوف ــ كما لا يخفى عليك ــ يجب ان يلم الماما كافيا بكل شيء . فلما انكرت انا عليه هذا القول لم يزد على ان هز كتفيه . .

وفي اخر ليلة قضيتها في المدينة تعشيت مرة اخرى مع الطبيب . وكنت اراه ــ وانا اسيرمعه في الطريق الى بيته ــ يحيي اهل المدينة عن ايمانه وشمائله فقلت له : يبدو انك تعرف الناس كلهم يا سيدي فأجابني: ان كل واحد في هذه المدينة هو اما صاحب لي واما عدو وعلى ذلك فكلهم يعرفني . والرجل المغمور التافه القدر هو الذي يبقى بين الناس مجهولا .

وبعد ان شكرت مضيفي على ما لقيته منه من حسن الضيافة قلت له: اني رأيت بفضل معاونتك وارشادك اماكن ومشاهد في فرنسا لا يتاح للكثير من السائحين ان يشهدوها . واني لاطلب اليك ان تصنع معي معروفا وتوليني جميلا لست انساه. وذلك ان لي صديقا يجيء الى باريس مرة في كل عام . وهذا الصديق يحترف الصحافة . وهو يلتقي في باريس دائما برجال الصحف ورجال السياسة . وهو لا يغادر باريس الى اية مدينة اخرى من مدن فرنسا فهل تأذن له في ان يجيء لتحيتك ؟

فنظر الي السيد افلاطون نظرة المتثبت وقال : انك تقول ان صاحبك صحفي ولهذا فاني استئذنك في القول باني لن استقبله . فالرجل الفيلسوف شيء .. والرجل الصحفي شيء اخر .. بل شيء مختلف جدا.

القاهرة مبارك ابراهيم

بين القصر والقيد

بقلم عيسى ميخائيل سابا

* * *

في ضمير الدهر انفاس متقطعة ، وعيون دامعة ، وقلوب واجفة كانت في مسراتها ذاهلة غافية ، وفي أبهة مجدها ساهية سادرة . لا تحس غير اللذة ولا تطمئن لغير الراحة على ضرب الدف ووقع المزاهر ، وارتشاف الراح ونشق الطيب وشم اليهار ، وهز الخصور وتماوج الارداف ، من هذه الانفاس ، نفس ابي القاسم المعتمد بن المعتضد العبادي قاضي اشبيلية وصاحبها ، ولد في باحة السنة الـ ١٠٤٠م وقد عمل في ابان شبابه لابيه في شلب ، حاكما لاقليم الجوف البرتغالي كله . وخلف اباه على الملك في السنة الـ ١٠٦٩ م .

ومن خبره كما جاء في المجاميع الادبية ، انه كان يتنزه مع وزيره ابي بكر بن عمار ، فمرا بنهر تماوجت الانسام فوقه رهوا ، فقال المعتمد : « نسج الريح على الماء زرد » وقال لوزيره : « أجز » فأرتج عليه ، وحدث ان كانت على ضفة النهر جارية تغسل بعض حاجها تدعى « اعتماد الرميلية » فقالت : « يا له درعا منيعا لو جمد » فراق المعتمد قولها ، وكانت على شيء من الحسن والرداء فاتخذها زوجة لجمالها وسرعة خاطرها ، وحبه للشعر وكان مطبوعا عليه ، ينظمه بدون كلفة او اجهاد كما نص على ذلك عارفوه ومعاصروه ، وقالوا : لشغفه في الشعر قرب من بلاطه شعراء الاندلس وافريقية وصقلية ، وذكر لنا الفتح بن خاقان كثيرا من شعره وحوادثه ، ولما صار اليه الملك عاوده الحنين الى ما كان ينعم فيه من ملاذ فقال:

ولقد شربت الراح يسطع نورها   والليل قد مد الظلام رداء
حتى تبدى البدر في جوزائه   ملكا تناهى بهجة وبهاء

على ان بهجته ما عتمت ان استبدلت بحسرة ، من ذلك ان الادفنس صاحب طليطلة سار اليه بجيشه وقد قصرت الاعنة واشتجرت الاسنة ، فاستنجد المعتمد صاحب مراكش يوسف ابن تاشفين ، فأنجده وانتصر على الادفنس ورجع الى المغرب وفي قلبه توق وحنين الى الاندلس التي تدر لبنا وعسلا ، وراقه ما شاهد ورأى بأم عينه من غنى وخصب وحدائق وبساتين وانهار تترقرق على الحصباء وتتدفق مزمجرة فحسد المعتمد على جنته ، وقد آنس منه ضعفا والضعيف اكلة القوي في كل زمان ومكان فسار اليه بجيش يرتد عنه الطرف كليلا ، فحاصر اشبيلية ودخلها حربا ، وقبض على صاحبها « المعتمد » وحمله مصفدا الى مدينة « أغمات » وجعله في معقله لا يسمع فيه غير وقع الاصفاد في رجليه .

وما يهمنا من خبره هو ادبه الذي تناول فيه الطبيعة والخمر والملاهي وهو في عز ملكه غير حاسب للدهر تقلباته ، فظن أن بسمة الدهر تدوم عن بسطة في الملك وجمال القصر وازدهاره بما حوى من جماد وناطق فقال يتمم البيتين السابقين :

لما اراد (١) تنزها في غربه   جعل المظلة فوقه الجوزاء
وتناهضت زهر النجوم يحفه   لالاؤها فاستكمل الآلاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله   رفعت ثرياها عليه لواء

فهذه الابيات تملي علينا ما كان عليه قصره من أبهة وجلال وما فيه من نعيم بين كأس ومزهر وقيان فيتابع :

وحكيته في الارض بين مواكب   وكواعب جمعت سنا وسناء
ان نشرت تلك الدروع حنادسا   ملات لنا هذي الكؤوس ضياء
واذا تغنت هذه في مزهر   لم تأل تلك على التريك غناء

وذكر عنه عارفوه : انه كان اندى ملوك الاندلس راحة وارحبهم ساحة واعظمهم ثمادا وارفعهم عمادا ، وكان ملقى الرحال يقصده الشعراء متزاحمين في بابه . واما شعره على ما وصفه ابن بسام في « الذخيرة » : « لابن عباد شعر كما انشق الكمام عن الزهر ، لو صار مثله ممن جعل الشعر صناعة واتخذه بضاعة لكان رائقا ونادرا مستغربا ولا عجب في ذلك فهو ليس شاعرا متكسبا ، ولا ممن اتخذ الشعر حرفة ومرتزقا ، وما الشعر عنده الا خطفة خاطر او نفثة من نفثات الصدر يصعدها حبا او الما يعبر به عما يجول في خاطره ويدور في خلده من نبضات قلب قد كسر في محنته فهو وابو فراس متساويان في بلاء الاسر ، واما ابو فراس فقد كان حرا طليقا في اسره واما هو فقد كان ذليلا مقهورا يرسف في قيده ، فقد ذل بعد عز واحتقر بعد رفعة يعود به الخيال الى الماضي فيراه مشرقا ، وينظر الى حاضره فيراه مظلما ، فيأخذه الحزن والاسى ، وتغصه الذكرى فلا يرى غير قرض الشعر معزيا فيجريه على اسلات لسانه حرقة ولوعة والما فينشد :

ان يسلب القوم العدى   ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه   لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم   ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص   على الحشى شيء دفوع
أجلي تأخر لم يكن   بهواي ذلي والخضوع
ما سرت قط الى القتا   ل وكان من أملي الرجوع

وتتضح لنا عزة نفسه وكبرها بختام هذه الابيات التي تنبىء عن شرف اصل وطيب نبعة كزميله ابي فراس الذي كان يفاخر بنفسه وبقومه :

شيم الاولى أنا منهم   والاصل تتبعه الفروع

وان نحن نظرنا في شعره المبثوث في كتب الادب رأيناه

---

(١) الضمير يعود على البدر .

كما ألمعنا انه يتناول الطبيعة والخمر والملاهي ، غير ان الوصف عنده مادي تسيطر عليه الشهوة والشبق وغزله عادي ليس فيه حرقة شوق او لوعة ولا عجب في ذلك فقد كان ملكا وكل شيء في متناول يده والمال موفور والرفاهية حاصلة والمتزلفون و « القواد » من حوله كثر ، يدلنا على ذلك قوله يوم خرج من اشبيلية لتدبير بعض امور دولته ، فذكر ما ذكر من الاعوان والاحبة فقال :

ولما التقينا للوداع غدية وقد خفقت في ساحة القصر رايات
بكينا دما حتى كان عيوننا بجري الدموع الحمر منها جراحات

واول ما نكب به ، مقتل ابنه سراج الملك وقد قتل في مبارزته الاعداء ، فترك في الطريق ممزق الاثواب متكشف العورة ، فمر به شيخ من أئمة المسجد فلما رآه خلع عليه رداءه وستره به ومضى ولم يعرف من هو هذا الامام الانساني والى ذلك اشار بقوله : « ولم أدر من القى عليه رداءه » وكان كل همه ان يثأر لولده هذا القتيل ، على اننا لم نقع على مرثاة قالها فيه الا ما اشار اليه في تأبين اخويه الراضي والمأمون وفي قوله لوعة وفي عينيه دمعة ، وقد راى قمرية تنوح على غصن وامامها وكر فيه طائران يغردان فذكرنا قوله بقول ابي فراس يوم رأى حمامة فخاطبها على ان بين القولين بونا قال :

بكت ان رأت الفين ضمهما وكر مساء وقد اخنى على الفها الدهر
وناحت فباحت واستراحت بسرها وما نطقت حرفا يبوح به سر
فما لي لا أبكي أم القلب صخرة ؟ وكم صخرة في الارض يجري بها نهر
بكت واحدا لم يشجها غير فقده وأبكي لآلاف عديدهم كثر
بني صغير او خليل مفارق يمزق ذا فقر ويغرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما بقرطبة النكداء او « رندة » القبر

وهنا تتضح لنا شدة حزنه على ولده القتيل الذي عقد لسانه وذهب بقريحته فلم يقل فيه كلمة :

غدرت اذا ان ضن جفني بقطرة وان لوءمت نفسي فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معي لمثلهما فلتحزن الانجم الزهر

ولا ريب ان هذه النفثة قد اوحتها اليه نفسه المتأكلة يوم مقتل اولاده وسقوطه عن العرش واسره في «اغمات» ويذكرنا قوله هذا بقوله لما دخلوا عليه في قصره ووضعوا القيود في رجليه فاخذته عزة الملك وصولة السلطان فقال:

تبدلت من عز ظل البنود بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سنانا ذليقا وعضبا رقيقا صقيل الحدود
فقد صار ذاك وذا أدهما يعض بساقي عض الاسود

وفي « اغمات » تتجلى لنا نفسه الكئيبة فنراه دامع العين كسير القلب يعيد ذكريات ايامه التي كان يرفل فيها بالدمقس والحرير بين الاحبة والخلان على رشف كأس ورنة وتر وهز قوام وهصر خصور فينشد :

غريب بأرض المغربين أسير سيبكي عليه منبر وسرير
مضى زمن والملك مستانس به وأصبح منه اليوم وهو نفور
فيا ليت شعري هل ابيتن ليلة امامي وخلفي روضة وغدير

وفي ذلك اشارة الى قصره المطل على النهر تكتنفه الاشجار على مختلف انواعها ولا سيما الزيتون فيتابع :

بمنبتة الزيتون مورثة العلى يغني حمام او تدن طيور
بزاهرها السامي الذرى جاده الحيا تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده غيورين والصب المحب غيور

وفي « اغمات » البلد المظلم في عينيه رغم سطوع شمسه وفي سجنه يستقبل بناته في عيد الفطر وهن في اطمار بالية ، في ايديهن مغازل ، وفي ارجلهن اثر الطين ، وفي وجوههن شحوب ، تتحير الدموع في عيونهن فيمضه المنظر ، ويتداعى به الفكر الى الوراء الى الوراء السعيد ، واذا على أسلات لسانه نفثة هي :

فيما مضى كنت بالايام مسرورا فساءك العيد في أغمات ماسورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطان في الطين والاقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
أفطرت في العيد لا عادت اساءته فكان فطرك للاكباد تفطيرا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا فردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به فانما بات بالاحلام مغرورا

وفي يوم من تلك الايام المشؤومة عليه دخل عليه ولده ابو هاشم فرآه يرسف بالقيد والدمعة تترقرق في عينيه ، فحزن واخذته غصة الذكرى وغصة ما صار اليه ابوه ، واذا هو « المعتمد » يرى ولده امامه فتؤلمه الذكرى وينتابه الحزن الشديد فيندفع بحرقة قلب يخاطب قيده :

قيدي أما تعلمني مسلما أبيت ان تشفق او ترحما
دمي شراب لك واللحم قد أكلته لا تهشم الاعظما
ارحم طفيلا طائشا لبه لم يخش ان يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله جرعتهن السم والعلقما
منهن من يفهم شيئا فقد خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئا فما يفتح الا للرضاع فما

ونلمح في نفثاته التي صعدها من قلب مكلوم هي التي كتبت له الخلود في الادب بما ابقاه لنا من شعر وجداني خالص ، وهذه فلذة صادرة من كبد قرحه الاسر واذله القيد ، وقد مر بجو معقله سرب قطا يتهادى في طيات الهواء حرا طليقا فقال :

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك والله المعيد حسادة ولكن حنينا ان تكلي لها وشكل
ألا اسرح فلا شمل صديع ولا الحشا وجيع ولا عينان يبكيهما ثكل

. . . .

ألا عصم الله القطا في فراخها فان فراخي خانها الماء والظل

الى هنا يحط بنا المطاف في ادب المعتمد وقد عرضنا الى شيء منه ، فقد ذاق حلاوة اعقبتها مرارة ، ومن دراسة الادب يجب ان نتخذ عبرة وعظة ، وجمال القول وروعته لا يكفيان ان لم ينطو تحتهما مغزى او عظة ولله در ابي البقاء حيث قال :

هي الامور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته ازمان

عيسى ميخائيل سابا

ابو الهول بين شوقي وشكري

بقلم محمود محمد سليمان

* * *

ليس عجبا ان يقف الشعراء على الاطلال والآثار في القديم والحديث ، فانه يطيب لهم دائما ان يعيشوا في ماضي الذكريات ، والذكريات بالنسبة لهم احلام سعيدة رأوا زخرفها الخالب المشوق ، او عبرة من التاريخ لا تبرح تراود اذهانهم الخصيبة ومنثم وقفوا على الاطلال يسألونها عن مصاير الايام وما شهدت من نبضات القلوب السعيدة في جنة الحب والاحلام ، واستشهدوا الآثار عن عبر الايام وتقلبها بالخير والشر على الملوك والشعوب وهم يقضون بذلك حاجة القلب المستهام ، ونهم الفكر المتأمل .

هل كلمت دار نعم النابغة المحب وهو واقف يلح بالسؤال ؟ انها لم تجبه الا بالصمت الذي وعى عنه الكثير .

فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا … والدار لو كلمتنا ذات اخبار

وهل كانت دموع البحتري على الايوان الا استجابة للعبرة الموثرة مع انها محبوسة على الصبابة والوجد

عُمِرت للسرور دارا فصارت … للتعزي رباعهم والتأسي
فلها ان اعينها بدموع … موقفات على الصبابة حُبس

وكم يلذ للناقد ان يرى شاعرين استوقفتهما العبرة في بعض الآثار فخاضا شجونا من الاحاديث ، واختلفا في شعاب القول كما فعل شوقي وشكري في حديثهما الى ابي الهول فيقعد ليرصد منهما الحديث !

* * *

حين وقف شوقي يستنطق ابا الهول اسراره ، ويحاوره فيما حفظ من عبر الايام كان في مسوح الخطباء الذين يعرضون التاريخ للعبرة .

وحين جلس شكري الى الاثر الخالد يتملى الاحداث ، وينفذ بنظراته الى اسراره العميقة كان شاعرا فنانا .

لقد سبح شوقي مع الاحداث التاريخية والماضي العريق ، واشهد ابا الهول على ذلك كله ليستخلص عبرة للشباب والاجيال المعاصرة ، فيصلوا مجد ماضيهم بحاضرهم .

فهل من يبلغ عنا الاصول … بان الفروع اقتدت بالسير
وانا خطبنا حسان العلا … وسقنا لها الغالي المدخر

وابو الهول الذي اختزن اسرار التاريخ تلقاها عنه شوقي كما يتلقى المؤرخ رواية التاريخ من كتاب ثم يعلنها كما تلقاها في امانة ، ولكن شكري الحصيف يستبطن اسرار ابي الهول ليردها الى نفسه فاذا ما امتزجت هذه الاسرار بمشاعره ، وعاشت في وجدانه اخرجها فنا مصبوغا بنفسه ، فنحن نقرأ اسرار ابي الهول في تعبير شوقي كما نفتح اعيننا على صفحة من التاريخ ونقرؤها في تعبير شكري بدعا من الفن !

لا جرم كان اختلاف المنهجية بين الشاعرين فرقا بين منهج التقليد ، ومنهج التجديد او فرقا بين اديب يرى التاريخ كما يراه الناس في صرامة الواقع واديب يراه باحساسه ووجدانه الذاتي .

ولكي يبدو الفرق واضحا بين الاتجاهين نلاحظ اولا مع الشاعرين قدم الاثر الخالد وامتداده في الزمن واذا فهو سجل الاحداث وشاهد التاريخ .

يقول شوقي :

ابا الهول انت نديم الزمان … نجي الاوان سمير العصر
بسطت ذراعيك من آدم … ووليت وجهك شطر الزمر
تطل على عالم يُستهَل … وتوفي على عالم يُحتَضر
فعين الى من بدا للوجود … واخرى مشيعة من عبر

ويقول شكري :

فان روح الدهر تبغي به … وكنا لما احكم كالمعقل
تحسبه لو جئته ناشدا … معنى حياة الناس لم يجهل
كم امتطى الايام تجري به … كانه والخلد في منزل
كم عبّ لجّ الدهر ثم انثنى … الا بقايا الماء في الجندل
كانه منتظر موعدا … حيّن كي ينطق بالمقول

وهنا مفترق الطريق بين شاعرين ان شوقي يلح على ابي الهول ان يحدثه حديث التاريخ الذي وعاه واختزنه في اطوائه فشاعرنا حريص على ان يعرف هذا التاريخ على لسان ابي الهول ، لان معرفة التاريخ في نظر الشاعر شيء مقصود ارايت ان من اهداف الشاعر ان يستعرض التاريخ لان له غاية ابعد من استعراض التاريخ ، ذلك انه يريد ان يوقظ العزائم الفافية ويحمس الهمم الوانية الى مجد حاضر يتصل بذلك الماضي الكريم الذي حدثنا عنه ابو الهول ، ومن ثم نرى شوقي يلاحق ابا الهول بالسؤال لينفض الى الشاعر ما في جعبته من اسرار فاننا نريد ان نهتدي بحديث الشاهد الخبير ، وتنفعنا الاسوة بهذا التاريخ الذي يرد على لسانه :

فحدث فقد يهتدي بالحديث … وخبّر فقد يؤتسى بالخبر

ولكن شكري يتجه اتجاها اخر ، انه لا يحفل باستعراض التاريخ على لسان ابي الهول لانه لا يهدف من الفن الى النصح والوعظ ، واذا فليكن ابو الهول صاحب الاسرار امينا على اسراره ، حريصا على ان تظل في طي الكتمان ، وكأنه يعتقد ان هذه الاسرار التي لفها ابو الهول في اطوائه لو برزت للناس فقد فقدت سحرها ، فصمت ابي الهول وحياطته لاسراره سر جمالها ومناط تأثيرها فليصمت ابو الهول ولا يتحدث الى الناس ، لاننا لا نريد له ان يتحدث الى احد ضنا بهذه الاسرار ان تنكشف للناس فلا يكون لها سحر ولا تأثير ، ولم يأت بعد الوقت الذي يتحدث فيه شاهد التاريخ الى الناس :

كـأنـه منتظـر مـوعـدا حيـّـن كـي ينطـق بالمقول
لـو فـاه يومـا ذاكـرا سره لـم يعجـب الرائي ولـم يعجل

ولسنا في حاجة الى ان نسمع ثرثرة التمثال الخالد ، ففي صمته بلاغة وبيان ، وحسبنا ان نقف في محرابه نقرأ في نظراته الحادة اسرار التاريخ بما اختلف فيه من احداث وخطوب ولن يفوتنا من تلك الاسرار شيء ، فانها واضحة في عيني ابي الهول ناطقة على لسانه الصامـت ، هكذا يقول شكري :

أبصرت أكـل الدهـر أبنـاءه ألـم تـرع مـن ذلـك الماكـل
بينكمـا نجـوى علـى صمته وصَمتـة" فـي فيـك كالمقول

والشاعر يريد ان نعرف من هذا الصمت احداث التاريخ العريضة التي مرت بمصر فلنطلق خيالنا وراء هذا الماضي فسنقف على هذه الحوادث نعم، سنعرفها في صورة عميقة مؤثرة ، لان الخيال الذي سيمتد في اغوار الماضي البعيد سينفض عن هذا التاريخ الغبار ، وسيعيده حيا نابضا ماثلا للعيان ، وسيتسع لخيالنا ان يبحث في ركام الماضي ليعيد تلك الحياة التي مرت بافراحها واحزانها وهكذا حملنا فن شكري البارع على اجنحة الخيال الى اغوار التاريخ فعرفنا منه الدقيق الجليل .

ولكن شوقي لم يترك لنا الفرصة لنتملى بالخيال احداث الزمن فانطلق يلح على ابي الهول ان يتحدث عن التاريخ وها قد تحدث ابو الهول فاعفى خيالنا ان يجمح وراء الزمن يتقصى العبرة ، ويتعرف الماضي ، وما اشوقنا ان نتعرف اليه بأخيلتنا واحلامنا ، واذ قدم شوقي لنا صورة التاريخ وعبرته فقد كشف سر التمثال الغامض ، وفتح خزائن اسراره ــ وليته ابقاها مصونة ــ فان جلال هذه الاسرار ان تصان ، لقد اخرجنا شوقي من منطقة الظل الرطيـب الى صحوة الشمس المحرقة وهكذا حتم شوقي ان يعرض التاريخ .

ألـم تبـل فرعـون فـي عـزه الـى الشمس مغربـا والقمـر
ظليـل الحضارة فـي الاولين رفيـع البنـاء جليـل الاثـر
يؤسِّس فـي الارض للغابرين ويغـرس للاخـرين الثمـر
وراعـك مـا راع مـن خيـل قمبيز ترمـي سنابكهـا بالشرر
جـوارف بالنـار تغـزو البلاد وآونـة بالقنـا المشتجـر
وابصرت اسكنـدرا فـي الملا قشيب العـلا في الشباب النضر
تبلـج فـي مـصر اكليلـه فلم يَعْدُ في الملك عمـر الزهر
وشاهدت قيصر كيف استبد وكيـف أذل بمصـر القصـر
وكيـف تجبّـر اعـوانـه وساقوا الخـلائق سوق الحمر
وكيـف ابتـلوا بقليـل العديد مـن الفاتحيـن كريـم النّفـر
رمـى تـاج قيصر رمـى الزجـاج وفـلّ الجمـوع وثـلّ السرر
فـدع كـل طـاغية للزمـان فـان الزمـان يقيـم الصعَر

ثم استأنف شوقي بعد ذلك استعراضا اخر للديانات ــ فأشهد ابا الهول عليها ــ الديانات الفرعونية والديانات السماوية في ابيات تبلغ ستة عشر بيتا . وهل كان شوقي حفيا باستعراض التاريخ الى هذا الحد ؟ يخيل الي ان اصطناع هذا الاسلوب قد حول الفن الى باب من التاريخ ، ومع قداسة التاريخ وحرمته واتخاذه موطنا للعبرة ، فليس من الفائدة للفن او التاريخ ان يطغى احدهما على الاخر ، والمفهوم ان التاريخ بأسلوب الفن اقدر على الاثارة وبعث النفس الى موطن العبرة ، وتحقيق ذلك اذا اردنا ان نتناول التاريخ بأسلوب الفن ننبش عليه هذا النبش الواضح بل نحفظه في عليائه ملفوفا في اسراره لنغري به الخيال الذي يهيم فوق شرفاته ويستخرج من ذلـك العبرة كما فعل الشاعر الملهم شكري ، واذا كان شوقي قد نظم التاريخ عقودا في كثير من قصائده وزعم ان الشعر ابن التاريخ والطبيعة فانه من الصعب علينا ان نؤمن بأن نظم التاريخ فن وبنوة الشعر للتاريخ والطبيعة لا نفهمهما الا على معنى الالهام والايحاء لا على معنى السرد ونظم احداثه في عقود، ولو تخفى الشاعر وراء شاهد على التاريخ كأبي الهول .

* * *

ويبدو ان شوقي قد ارتبط بالصورة الحسية لابي الهول ارتباطا واضحا مع ان اهم ما يحمل هذا الاثـر اسراره العميقة الدفينة في خباياه ، فالشاعر العميق النظرة لا يقف عند هذا الظاهر الذي يخدع حس البصر ، ومشكلة ابي الهول من وجهة نظر الفن في اسراره ودخائله لا صورته المزدوجة المركبة من جسم اسد ورأس انسان ولكن مشكلة ابي الهول عند شوقي الصورة الغريبة .

أبـا الهـول ما انت في المعضلات لقد ضلـّت السبـل فيك الفكر
تحيـّـرت البـدو مـاذا تكون وضلـت بوادي الظنون الحضر
فكنـت لهم صـورة العنفـوان وكنـت مثـال الحجى والبصر
وسرك فـي حجبـه كلمـا اطلـت عليـه الظنـون استتر
ومـا راعهـم غيـر رأس الرجال على هيكـل مـن ذوات الظفـر

وان السر المحجب الذي يبحث عنه الناس ويجتهدون لكشفه هو سر الصورة المركبة لانهم متحيرون قد اخذتهم الدهشة من هذا الازدواج في الصورة ماذا عنى النحات بها والام ترمز ، لقد ضلوا وهم يبحثون السر المستخفي وراء هذه الصورة ، ولماذا نشغل بهذه الصورة ويعترينا الوهن ووراء هذه الصورة من اسرار من عبر التاريـخ وتقلبات الحوادث ما يحصرنا في تأمل عميق ، ويفسح المجال للخيال الطليق والفكر المتأمل الوسيع ؟ ! وسار شوقي في قصيدته مأخوذا بصورة التمثال الحية ــ وليست الاهم ولا موضع التأمل ــ ليرى ابا الهول وقد فقئت عيناه فيزعم ان ابا الهول قد هزىء بالدهر، لانه ساماه في البقاء والخلود وكان استهزاء الاثر الخالد بالدهر فرضا افترضه الشاعر ليخلص الى اسلوب التعليل فيزعم مرة ثانية ان الدهر انقلب على ابي الهول المتهزىء ــ والدهر هنـا ديك الصباح رمز النهار المتجدد ، فنقر عينيه حتـى اسال البياض وسل السواد واوغل منقاره في محجري عينيه ، فصار ابو الهول رهين عماه ، وجلسته الدائمة كأبي العلاء ، قطيع القيام سليب البصر .

ابـا الهـول ويحـك لا يستقل مـع الدهـر شيء ولا يحتقـر
تهـزأت دهـرا بديـك الصباح فنقـر عينيـك فيمـا نقـر

اسال البياض وسل السواد واوغل منقاره في الحفر
فعدت كانك ذو المحبسين قطيع القيام سليب البصر

وايغالا من شوقي في الحسية تأخذ عينه مناظر الرمال الممتدة امام التمثال فلتكن في تعبير الشاعر ذنوب البشر الكثيرة ، وليكن ابو الهول حارسا للقدر او مسجلا للذنوب ، او يكون ابو الهول وقد انبسطت امامه رقعة الرمال الفسيحة قارئا للحظ خلال سطور الرمال

كأن الرمال على جانبيك وبين يديك ذنوب البشر
كأنك فيها لواء القضاء على الارض او ديدبان القدر
كأنك صاحب رمل يرى خبايا الغيوب خلال السطر

ومشكلة الفن هنا ان الترابط بين الفكرة منحل او على الاقل يمسكها رباط واه ضعيف فحديثنا عن التمثال الرابض على الرمال قد جر الى الحديث عن الرمال مع ملاحظة انه على قدر تجمع المشاعر والانفعال النفسي بالموقف تتجمع الافكار ولا تبدو مزقا في تعبير الشاعر ، ولو هيىء له الا ينساق مع الصورة الحسية كما فعل لتلاحمت الافكار في تعبيره وكانت وحدة مترابطة واساس ذلك ان النظر الحسي الى الصورة لا يثير ألا انفعالا سطحيا يظهر فيما يتلاحق من الخيال الشكلي الذي يبدو في تعبير الحسيين ، واعتبر ذلك بما فعل شوقي ، فقد استوقفته الصورة المركبة من جسم اسد وراس انسان ، واستوقفه منظر العينين المسمولتين في التمثال ، واستوقفه منظر الرمال الكثيرة امام التمثال وحوله ، واخيرا استوقفته جلسة التمثال بين يدي الهرمين ، وغرام الشاعر بالاسلوب التقليدي دعاه الى ان يعلل وقفة التمثال على الهرمين ، انها وفاء لبناة الاهرام وكأن ابا الهول يرجى عودة المجد الذاهب في منفيس (١)

أبا الهول لو لم تكن آية لكان وفاؤك احدى العبر
أطلت على الهرمين الوقوف كثاكلة لا تريم الحفر
ترجّي لبانيهما عودة وكيف يعود الرميم النخر
تجوس بعين خلال الديار وترمي باخرى فضاء النهر
تروم بمنفيس بيض الظبا وسمر القنا والخميس الدثر

ولا شك أن التوغل في وصف الصورة الحسية ينأى بنا عن الفن الاصيل الذي ينبع من النفس لا من السطح ، ويزلجنا الى نوع من التكلف كما وقع لشوقي ، وهو يجعل التمثال اعمى قد ضاعت عيناه حين استهزأ بالدهر فانقلب عليه يفقأ عينيه ، واخيرا نرى الانسياق مع التصوير الحسي مدعاة الى تفكك الوحدة في القصيدة ، لان رباط القصيدة في وحدة الشعور واصالته ومثل هذه الوحدة لا تدعو الشاعر ان يدخل الى الفن من باب التصوير الحسي ولشد ما تعجب اذا رأيت شكري يولي ظهره للصورة الحسية في ابي الهول ليعيش في تأملاته العميقة ، وبهذه التأملات ينسى ان ابا الهول قد فقئت عيناه لا ، بل أنه يرى اشعة الحاظه ماضية كالسهام الى قلب الدهر ، وهذه الالحاظ الحادة تكشف خبيئة الدهر بنفاذها ومضائها ، وكيف تسمل عينا ابي الهول وهي عيون الدهر ؟ !

ومقلة تخبر الحاظها ان عيون الدهر لم تسمل
والدهر وهو الساهر المعتدي يغفى وعين لك لم تغفل
ورب لحظ منك قد رشته في قلب هذا الدهر كالموغل
فابحث خباياه واحناءه واكشف لنا عن ذلك الغيطل (٢)

وكم يبدو الفرق واضحا بين مذهب التصوير الحسي ومذهب التأملات اذا راينا ابا الهول في احساس شوقي تمثالا لا يركب متن الرمال ، يتقلب على عينه الليل والنهار ، وهو جالس لا يريم مكانه ، ثم تمثالا لا يغلبه الزمن القاهر الذي يقهر كل شيء . أليس الزمن قد نقر عينيه فأسال البياض وسل السواد ؟ ثم رايناه في احساس شكري أقوى من الزمن القاهر وابسط سلطانا ، فالزمن يمر به ويخشاه كما يمر العابد على الهيكل خاشعا تجلله الرهبة والمذلة ، فابو الهول ذو سلطان على الدهر شديد يأمره فيطيع وينهاه فيزدجر :

مرت بك الايام مخشية كأنها مرت على هيكل
فابعث لنا من عزمها عدة فلو سألت الدهر لم يبخل
ولو نهيت الدهر لم يعتد ولو زجرت الدهر لم يقبل

فاي سلطان لابي الهول على الدهر ؟ واي قوة هذه التي يرغم بها الدهر على ما يريد ، ان احساس شكري بأبي الهول ـ شاهد التاريخ ـ غمر نفسه بفيض من الاجلال ووجه فكره الى شعاب التأملات فكان ابو الهول في نفسه اكبر من الزمان وشكري على طريقته من التأملات العميقة وبأثر من احساسه العميق يتصور ابا الهول خبيرا بالغيوب ، كما كان شاهدا على ماضي التاريخ فاذا كان مسجلا للزمن الغابر فهو ينبيء عن الغيب كأنه ملهم يستطلع انباء ما يستقبل الناس من احداث :

انظر الى الاقدار في غيبها واذكر مآل العيش في المقبل
أغابر الايام في صرفها ؟ كمضمر في الغيب مستقبل
أمالك عوجل عن ملكه كذي علاء بعد لم ينزل

وتأملات شكري وعمق نظرته كما تمتد الى الغيب مع نظرات ابي الهول التي تستر ضمير القدر تتعلق بفلسفة اجتماعية اعمق من نظرات شوقي الى الناس والاشياء فشكري يرى الناس يجريها المستبد في اهوائه برهبة السلطان والاستبداد كالحلي يصيغها الصقيل الحاذق في النار ليصوغها كما يريد من اشكال !

وكم نزفت الشعوب من عبرات في ظل الاستبداد واعقب مآسيها صحوة الحرية والنور كما يعقب هطول المطر صفو الجو ونقاؤه ! وان تلك التأملات من وحي التمثال امين الاسرار وكم عند ابي الهول من اسرار !

والناس حلي القاهر المعتلي يالم نار الحاذق الصيقل
يصوغهم كل غلوب على ... سنة ملك الرمح والمنصل
كم عبرة للناس ابصرتها وعبرة للهاطل المسبل
فهل دموع النحس تحيي الورى مثل عقيب المطر المرسل
اراك لا ترثي لما نابهم يا ليتني مثلك لم احفل

---

(١) منف او منفيس مدينة فرعونية قديمة عاش فيها بناة الاهرام .
(٢) الغيطل : الظلمة المتراكمة .

وتأبى النظرة العميقة والتأمل الواعي ــ لدى شكري ــ الا كشف السر عن تخلف الناس وتأخرهم ، فهم لا يعتبرون بأحداث الدهر ، عاجزون عن التطور والتطلع الى الجديد مع ان حياة الناس وتطورهم لا ينبعثان الا على اساس من اعتناق الجديد

قيدنا العجز ونرجو على   يسمو الذي في الطير لم يكبل
نعاف مستطرف ما يرتجي   كاننا في العيش لم نجبل

ونظرات شوقي التي يلم بها في حديثه مع ابي الهول قريبة دانية لا تتسم بالعمق الذي يبدو في نظرات شكري وتأملاته فهو مثلا يبحث سر خلود التمثال العتيق فيرى ان خلود التمثال راجع الى انه حجر صلد لم تتعلق به الروح كما تتعلق بالاحياء :

ولو وجدت فيك يا ابن الصفاة   لحقت بصانعك المقتدر
فان الحياة تفل الحديد اذا لبسته وتبلي الحجر ..

ومرة ثانية ينتقل من دهشة لصورة ابي الهول العجيبة الى لون من السخرية بهؤلاء المتعجبين ، ومثار السخرية ان صورتهم المستوية في الظاهر تناقض ما طبعوا عليه من شر ونفاق وغدر ، وهذا التناقض بين الظاهر والباطن مبعث للتعجب حتما وهكذا يقول شوقي :

وما راعهم غير رأس الرجا   ل على هيكل من ذوات الظفر
ولو صوروا من نواحي الطباع   توالوا عليك سباع الصور
فيا رب وجه كصافي النمير   تشابه حامله والنمر ...

وواضح ان هذه النظرات هينة قريبة وكأنها اشبه بنظرات شوقي الحسية الى التمثال .

أما شكري فلا ينفصل بعواطفه عن ابي الهول وهو يتنقل مع التمثال الحي في تيارات شعورية وفكرية عميقة تحس ذلك منذ الوهلة الاولى فقد اناخ ابو الهول بكلكله فوق صدر الزمن يرسل في صمته العظات البالغات ، وانفرد في صمته وخلوته بعيدا عن الناس . هل اختار هذا الخلاء ؟ ! ام قدر له بناته ان يعيش هكذا متخليا من الناس ؟ ثم تركوه ليحفظ سر امجادهم بعد مماتهم ! الم يمل العيش بعد اصحابه كما يمل الصديق الوفي حياته بعد اصحابه المرتحلين ! لا شك ان ابا الهول يحمل اثقالا تنوء بها الجبال الراسيات ، وكيف لا يثقل بالحياة بعد اصحابه الذين صنعوا مجدا باذخا في غابر الايام ، وهل يعود ذلك المجد الشامخ لمصر أم تبخل به الايام ؟ ! هكذا يقول شكري :

انخت فوق الدهر بالكلكل   وكنت مثل الواعظ المرسل
عند فلاة قل قطانها   هل باختيار كنت في معزل
مضى الالى شادوك في مجدهم   كانه منك لدى موئل
فهل مللت العيش من بعدهم   كانما جللت بالمثقل
ثقل من الدهر تحملته ...   لو حل بالاطواد لم تحمل
فهل يدر العيش من بعدهم   ام ما ضروع الدهر بالحفل

هكذا يصنع الشاعر باحساسه المتأجج حياة التمثال الاصم حتى اذا رأى ثبات التمثال على تعاقب الحوادث واختلافها على الناس بالتغيير والتبديل عبر عن هذا المعنى كأنه يأسى لفعل الحوادث بالناس وتأثيرها العميق في مصايرهم

وانت مثل الخان في لبثه   ونحن مثل الراكب المعجل
غدا ترى عيناك من بعدنا   غير حلول الحي والمنزل
كم امة من بعدها امة   قد رحلت عنك ولم ترحل

واذا اراد شكري ان يعلل صمت ابي الهول العميق علله على طريقته التأملية زاعما ان الدهر سحر ابا الهول خوفا من فتكه فهو كالاسد الباطش ، وخوفا من نفاذه في معرفة الغيب والمامه بالاسرار فليذده الزمان بالسحر عن النطق حتى لا تفتضح الاسرار :

او انه المسحور في صمته   قد كان يمشي مشية المشبل
فخاف صرف الدهر من فتكه   وعلمه بالحادث المقبل
فزاده بالسحر عن نطقه   حتى تناسى عيشه المنجلي

وربما كان تعلق شكري بتأملاته العميقة عاملا على نسيانه صقل العبارة ــ احيانا ــ كما يبدو في بعض ابياته من مثل قوله :

يا ناظرا ينظر هذا الورى   نظرة طرف الناظر المعضل

فمثل هذا التكرار الذي يبعد العبارة عن الجو الموسيقي والذي سموه معاظلة قد يعيب التعبير . وقوله :

يصوغهم كل غلوب على   سنة ملك الرمح والمنصل

وفي هذا البيت تتابع الاضافات ، ولكن هذه الهنات لا تحسب شيئا مع بدائع هذا الفن الجميل الذي استبد به شكري وكان سابقا في حلبته . وبعد فهذه لمحات من تراثنا الادبي لعل فيها ما يعني شيئا لتطلعنا الى الفن الساحر في منازع الشعراء الخالدين .

القاهرة   **محمود محمد سليمان**


وديع فلسطين

عبد المسيح حداد

بقلم وديع فلسطين

واحسرتاه على عبد المسيح حداد وعلى الادب المهجري من بعده . (*)

فقد هوى في الميدان فرقد تاسع من الفراقد العشرة التي حملت لواء « الرابطة القلمية » في الاندلس الامريكية الشمالية ، ولم يبق من جبران خليل جبران وايليا ابي ماضي وندره حداد ونسيب عريضة ورشيد ايوب ووليم كاتسفليس ووديع باحوط والياس عطا الله وعبد المسيح حداد الا عاشرهم ميخائيل نعيمة ، مد الله في عمره ، وزاد قريحته خصبا على خصب ، ونفع به الضاد والفكر العربي نفعا جزيلا .

عرفت عبد المسيح حداد اول ما عرفته من رسائل استاذنا الدكتور احمد زكي ابي شادي التي كان يواليني بها من نيويورك ، ثم عرفته من جريدته « السائح » التي كانت اعدادها تنتهي الي بانتظام ، ثم عرفت صوته حين هاتفني عندما زرت الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٥٥ مرحبا بمقدمي . وقد سعيت يوما للقائه غير مرة في مكتبه المطل على اعلى ناطحة للسحاب في العالم (امبير ستيت بلدنج) في النهج الخامس في نيويورك فلم اوفق الى ذلك لتشابه ساعات العمل عند كلينا . ثم عرفته معرفة وثقى في زيارته للقاهرة قبل اعوام ثلاثة ، واتصل بيننا بعد ذلك حبل المودة والمراسلة حتى يوم وفاته في التاسع عشر من يناير الفارط أو نحو ذلك .

ومن غريب الاتفاق — وهو ما يدعوه رجال العلم بالتلبائية انني كنت في الضاحية اقرا كتابه الاخير « انطباعات مغترب » ، وكان صديقنا محمد عبد الغني حسن يقرا عين الكتاب في ضاحية اخرى ، وكان شاعرنا الكبير المغترب في باريس جورج صيدح يقرأ هذا الكتاب عينه عندما اتانا نبأ ارتحال عبد المسيح حداد عن دنيانا ، فعشنا معه على البعد وهو يلفظ اخر انفاسه بين زوجته الوفية الحبيبة السيدة الجليلة « حفيظة » ونجليه اللامعين جرير وليلى .

ولد عبد المسيح حداد في حمص عام ١٨٩٠ والتحق ببعض معاهدها ومعاهد الناصرة ، فلما صار ابن سبعة عشر ربيعا هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية ليلحق بشقيقه الشاعر ندره حداد الذي سبقه الى هناك بعشرة اعوام . وحاول التجارة ، شأن اغلب المغتربين الماهرين ، فلم يفلح ، ثم انصرف الى الكتابة في صحف امريكا ، ولا سيما في مجلة « الفنون » التي كان يصدرها نسيب عريضة ولم يطل بها الاجل . فلما توقفت تلك المجلة الراقية عن الصدور ، أزمع ان يصدر جريدة « السائح » ، وكان يومها في الثانية والعشرين من عمره ، وتوالى منذ عام ١٩١٢ صدورها مرتين اسبوعيا ، وكان محررها وناشرها ومنضد حروفها ومدير ادارتها وكل شيء فيها .

ولما تألفت « الرابطة القلمية » في ابريل ١٩٢٠ ائتلف اعضاؤها (وكانوا يسمون انفسهم « عمالها ») على التحرير في جريدة « السائح » وفي اعدادها السنوية الادبية الممتازة ، وظلت تلك الجريدة ملتقى لقرائح ابناء المهجر الشمالي الى ان حجبها صاحبها في عام ١٩٥٧ بعدما تبين ان دولة المهجر تؤذن بزوال ، وان اللسان العربي في بلاد المسيسبي قد استعجم واستبهم وانعقد ، على اسف منه واسى .

وصفه استاذنا المرحوم الدكتور احمد زكي ابو شادي « بانه اعرق اساطين الادب المهجري » (١) . ووصفه في مناسبة اخرى بقوله « وعبد المسيح حداد ناقد نزيه واديب أصيل مبدع » (٢) . وقال عنه في مرة تالية « كان عبد المسيح مؤسس تلك الرابطة الفذة أصغر أعضائها سنا ، ولكنه كان أنشطهم ومن المعهم تفكيرا واقواهم اصالة . وكان ولا يزال يدعى مارك توين العرب في امريكا لذكائه الخارق

(*) في مساء الثلاثاء الخامس من مارس (آذار) الفارط أقامت رابطة الادب الحديث بالقاهرة أمسية حزينة في دارها لتأبين الاديب المهجري الكبير المرحوم الاستاذ عبد المسيح حداد ، فوقف الحاضرون حدادا على روحه الطاهرة ثم تعاقب الخطباء في الحديث عن صاحب الذكرى ، وهم بترتيب كلماتهم الاساتذة : كامل السوافيري ووديع فلسطين ومحمود الشرقاوي واسعد حسني ومحمد عبد المنعم خفاجي والاديب التونسي الاستاذ محمد العيساوي الجمني .

وروحه الفكهة الحلوة النيرة التي يتذوقها الكثيرون في باب « الحان واشجان » بجريدة « السائح » . ولا تزال مجموعة الرابطة القلمية التي صدرت في سنة ١٩٢١ والسائح الممتاز الذي صدر في سنة ١٩٢٧ من المراجع الهامة عن روح الرابطة القلمية ، وهي الروح التي تقمصتها شخصية عبد المسيح حداد » (٣) .

ووصف جورج صيدح اثار عبد المسيح حداد بأنها « تمثل هرما ادبيا بناه عبد المسيح بجده وفنه ووطنيته ومحبته لكل ما هو عربي » . (٤)

وقال فيه صفيه وابن خؤولته نظير زيتون ــ وهو الذي نعاه الي ــ « يندر ان تلقى بين الادباء نظير عبد المسيح وفاء وتساميا وتحررا . وهو صوفي النزعة ، انساني الشرعة ، يبذل في سبيل الاخرين ما لا يبذل بعضه في سبيل نفسه . هذا الشهيد الحي قضي عليه ان يحمل رسالة الادب الحي الى جانب رسالة الصحافة الشريفة ورسالة امته ، بعدما رأى رفاقه الميامين يتساقطون نجما اثر نجم . فما جدف ولا تذمر ، بل تابع سيره بشوش الوجه رضي النفس » (٥) .

وقال عنه البدوي الملثم يعقوب العودات « هل في دولة المنثور ابرع من عبد المسيح حداد ... ؟ » (٦) .

ولم يكن اولئك جميعا مغالين في تقدير عبد المسيح حداد ولا مغلبين مناقبه الخلقية على مآثره الادبية . ذلك بأن عبد المسيح حداد كان على دين الرابطة القلمية حفيظا ، تلك الرابطة التي شاء ناظمو عقدها ان يجعلوا منها ثورة على الجمود والتقليد ، وان يجعلوا « الادب العربي معرضا للفكر الحي وللقلب الحساس وللقريحة الحرة ، لا معرضا للسفسطة المزركشة والثرثرة الرنانة والهذيان اللغوي » (٧) . وكان حظ عبد المسيح حداد في الرابطة كتابة الحكايات المهجرية تسجيلا للحياة الفريدة التي عاشها المهجريون في اول عهدهم بالهجرة ، وتمثيلا للامنيات التي جالت في أذهانهم قبيل الهجرة وبعدها ، وتصويرا لاسباب التكيف التي لجأوا اليها وهم يلمون ببلد جديد . كما كان حظه عقد مقالات الصدر في « السائح » داعيا فيها الى كل معنى عربي كريم ، في الادب او في الفن او في الاجتماع او في القومية . كذلك كان من نصيبه نشر نتاج عمال الرابطة في جريدته وفي أعدادها السنوية الخاصة ــ وهي ثروة ادبية عظيمة باقية ــ وفي كتاب « مجموعة الرابطة القلمية » الذي صدر منه جزء واحد له فيه فصلان ، وكان الامل منعقدا على اصدار اجزاء متصلة منه ، ولكن ذلك الامل كان خايبا .

ولقد ظهر لعبد المسيح حداد كتابان : كتاب « حكايات المهجر » وقد نفدت طبعته منذ صدوره عام ١٩٢١ ، وكان في عزمه ــ على ما أسر الي ــ ان يعيد طبعه بعد ان يضيف اليه فصولا جديدة تعزز حكاياته الواحدة والثلاثين ، وكتاب « انطباعات مغترب » الذي استعار عنوانه من صديقنا حبيب جاماتي ودون فيه خواطره بعد رحلته الى الوطن الام في عام ١٩٦٠ ، تلك الرحلة التي جاءت بعد ثلاث وخمسين سنة كاملة من هجرته . ولئن عز علي الاطلاع على حكايات حداد المهجرية ، في ما خلا ما نشره منها في « مجموعة الرابطة القلمية » ، فلقد وجدت طلاوة وحلاوة كبيرتين في مطالعة انطباعاته التي تكاد تكون في مجموعها ملحمة منثورة في التغني بأمجاد الوطن وفي الابتهاج برؤية محرزاته في ميادين الرقي المختلفة . وقد اوجز عبد المسيح حداد الصدى الذي انطبع في وجدانه من الرحلة في عبارة مخلدة البلاغة قال فيها ان شعوره بزيارة الوطن يعدل شعور من استطاع ان يستنزل كوكبا من السماء الى جيبه .

ولكن عبد المسيح حداد المطوي ازخر كثيرا من عبد المسيح حداد المنشور ، على وفرة ما كتبه في « السائح » وغير « السائح » . فلقد حدثني في مجالسي معه ثم في رسائله احاديث مسهبة عن زملائه اعضاء الرابطة القلمية وغيرهم من اهل المهجر الذين كان موضع ثقتهم وملاذهم في ساعات الحرج ، وله عن جبران ذكريات حميمات ، وله مثلها عن شقيقه ندره وعن نسيب عريضة ورشيد ايوب وايليا ابي ماضي وامين الريحاني واحمد زكي ابي شادي وفيليب حتي المؤرخ الكبير والمكرزلين نعوم وسلوم والدكتور جورج خير الله العلامة المؤرخ وغيرهم وغيرهم ، ولا أدري هل امهله العمر لتدوين هذه الذكريات العزيزات ــ على ما أفضى به الي ــ او ذهبت معه الى عالم النسيان المؤبد .

وكان عبد المسيح حداد الى ذلك شاعرا ، وان لم تعرف عنه الشاعرية كشقيقه ندره . ومن شعره في دمقراطية الدستور الذي نظمه عام ١٩٥٠ قوله :

اياك يا جمعية التاسيس ... ان تؤخذي بالشيخ والقسيس
لا خير في الدستور يوضع رأسه ... بعمامة بيضاء او قلنوس

وانشاده :

يقول الناس : ذا أمر عسير ... وليس على الهوى أمر عسير
اذا رغب الهوى في ربط قلب ... فلا بر يرد ولا بحور
وذا سر الحياة ، وكل فرد ... لسر حياته أعمى يسير (٨)

كما كان من المشتغلين بنقد الاثار الادبية ، ومن المسهمين في كل نشاط ثقافي عربي عرفته القارة الامريكية الشمالية .

---

(١) ابو شادي في المهجر ــ للدكتور احمد زكي ابي شادي ــ ص ٥٢ (٢) شعراء العرب المعاصرون ــ للدكتور احمد زكي ابي شادي ــ تحقيق رضوان ابرهيم ــ ص ٢٩٣ . (٣) أدب المهجر ــ لعيسى الناعوري ــ ص ٤٢٤ . (٤) ادبنا وادباؤنا في المهاجر الامركية ــ لجورج صيدح ــ ص ٢٨٦ . (٥) أدبنا وأدباؤنا ــ ص ٢٨٦ . (٦) الناطقون بالضاد في امريكا الجنوبية ــ للبدوي الملثم ــ جزء ٢ ــ ص ٧٥١ . (٧) انطباعات مغترب ــ لعبد المسيح حداد ــ ص ١٥٤ . (٨) شعراء العرب المعاصرون ــ ص ١٥٣ . (٩) الكتاب الذهبي لمهرجان خليل مطران بك ــ ص ٢٢٣ . (١٠) رائد الشعر الحديث ــ لمحمد عبد المنعم خفاجي ــ طبعة ٢ ــ جزء ١ ــ ص ١٠١ــ١٠٨ . (١١) النثر المهجري ــ للدكتور عبد الكريم الاشتر ــ جزء ١ ــ ص ٢٣٠ . (١٢) ادبنا وادباؤنا ــ ص ٢٨٥ . (١٣) شعراء العرب المعاصرون ــ ص ١٩٨ .

فمن ذلك مشاركته في حفل تكريم خليل مطران الذي اقامته الجاليات العربية في الولايات المتحدة عام ١٩٤٧ (٩)، واشتراكه في حفل تكريم الدكتور احمد زكي ابي شادي في فندق والدورف استوريا في نيويورك عام ١٩٥٠ (١٠)، واتصاله المستمر بوفود العرب في الامم المتحدة، وعضويته في مجلس ادارة الرابطة الدولية لحقوق الانسان، وهلم جرا.

ومجموعات « السائح » ثروة قومية اجزلها عبد المسيح حداد لمواطنيه وبني عشيرته سنوات ذرفت على نصف قرن. فلما احتجبت « السائح » حول مكتبها الى منتدى عربي يخدم جميع قصاده من ابناء العروبة ويقوم بالترجمة من العربية واليها، كما نقل قلمه الى جريدة « البيان » لصاحبها الاستاذ راجي ظاهر وهي الجريدة التي آلت اليها مطبعة « السائح »، والى جريدة « الاصلاح » لصاحبها صديقنا الدكتور الفونس جميل شوريز (المعروف بابي فيليب) ليؤدي الرسالة التي تطوع لحملها وهو فتى غض الاهاب ومات في الذياد عنها والمنافحة عن مثلها العليا. ولم يرم حداد قلمه الا بعدما رماه الموت بسهامه فأصاب.

وقد ورد في بعض المباحث التي اطلعنا عليها نقد لعبد المسيح حداد، فقال الدكتور عبد الكريم الاشتر انه «اغرق في عمله الصحفي فلم يلتفت الى صياغة الصورة على الاطلاق، ولم يعاود النظر فيها، فوقعت بذلك عنده في ضعف مازها من صور التعبير لدى كتاب الرابطة الاخرين» (١١). وفي ظننا ان هذا النقد غير حصيف ولا فيه نصفة، لان بلاغة عبد المسيح حداد في ارتجاله، فلم يكن يكتب بالقلم بل كان ينضد مقالاته من الذهن مباشرة على حروف الطابعة، كما انه كان ادبي المنهج والاسلوب مشرق الديباجة سليمها حتى في فصوله السياسية الدارجة. واذا كان عبد المسيح حداد في حاجة الى شهادة فوق ما اسلفنا من شهادات، فلنتدبر مقالة جورج صيدح عنه: « يكفي ان تتصفح العدد السنوي الممتاز للسائح وتقرأ اسماء المشتركين في تحريره لتعلم الى اي مستوى رفيع نهضت الصحافة العربية في نيويورك بفضل صاحب « السائح » (١٢)، ولنصغ الى شهادة جديدة من أبي شادي جاء فيها « ولكن ثمة كتابا اشتهروا في عالم الصحافة وهم جد متمكنين من الادب الخلاق، نذكر منهم على سبيل المثال في المهجر عبد المسيح حداد ... » (١٣). فاشتغال عبد المسيح حداد بالصحافة رفع مستواها الى سدة الادب ولم ينحط بمستوى الادب الى ما دون الصحافة.

وعزيز علي ان ارثي عبد المسيح حداد الاديب الصحفي المفكر العظيم، وهو الرجل الذي احببته على البعد والقرب، وصافيته الوداد، وناجيته في مراسلات مرسلات، وكان لي نعم الخل والصفي والخدن والقرين. وعندي من ذوب قلبه الذي صبه في رسائله ما يزيدني وقوفا على سريرة نفسه الاريحية ونبل عواطفه وعراقة خلقه وهيامه بالادب والادباء والعروبة والضاد.

واذا كنت ما فتئت اردد مع صديقي العظيم الراحل خليل مطران:

عندي الحائلان دون رفيع القدر من قلة ومن اقلال
لا لعمري، اني كثير باخواني وما موسر له راسمالي

فما اغنبني ان افقد بذهاب عبد المسيح حداد جزءا ثمينا من راس مالي. واخشى ان يجيء اليوم الذي اشهر فيه افلاسي، فهو يوم اتعجل منيتي قبل ان اطالع صبحه.

رعى الله ايامك يا عبد المسيح، وبورك عمرك الخلاق الوهاب، والى مثوى الخالدين ومنزل البررة المجاهدين المؤمنين.

القاهرة **وديع فلسطين**

عبد المسيح حداد

بقلم محمد عبد المنعم خفاجي

* * *

اي خسارة مني بها الادب العربي كافة، والادب المهجري خاصة، بوفاة عميده وشيخه وقطب رحاه، عبد المسيح حداد في نحو التاسع عشر من يناير عام ١٩٦٣، عن ثلاثة وسبعين عاما، قضاها في الكفاح من اجل رسالته وامته وفكرته، من اجل رفع منارة العربية في المهجر الامريكي، ونشر الادب العربي في ربوعه، واذاعة مفاخر العرب في العالم الجديد.

مات عبد المسيح حداد كما مات رفاقه في الجهاد، ولداته في الكفاح، وزملاؤه في المعركة، بعد ان بلغ الناس رسالة، صغيرة في مبناها، كبيرة في معناها، هي رسالة الحب والتسامح، والايثار والوفاء، رسالة الانسانية والاخاء.

وكما يغرب النجم الشامخ، وكما يغيب النور الباذخ، وكما تنتهي الحياة، غاب ابو جرير عبد المسيح حداد، معلما الناس بعده حب العرب والعروبة والعربية، حبا يصل الى حد الإيمان والتقديس.

لقد كان لخبر وفاته، وقد تناقله اصدقاؤه ومحبوه في القاهرة، وقع الصاعقة المدوية، واثر الفاجعة الدامية. ولكن لا ملاذ الا الصبر، ولا شيء الا التسليم والتفويض في مثل هذا الحدث الجلل، والمصاب الخطير..

كان عبد المسيح حداد في قلوبنا واحساسنا جميعا رمزا طيبا لكل معنى نبيل، وخلق كريم، وشيمة عربية أصيلة..

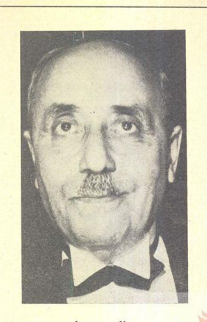
هاجر ابو شادي الى نيويورك عام ١٩٤٦، فاحتضنه عبد المسيح حداد واكرمه، وخفف عنه لوعة الغربة، واستكتبه في جريدته السائح، فظل يكتب فيها حتى

توفاه الله الى رحمته في الثاني عشر من ابريل عام ١٩٥٥ .. وكان ابو شادي يكتب لنا في رسائله عن خلق عبد المسيح حداد ما حببنا فيه ، وقربنا منه ، ولما مات ابو شادي نعاه في السائح ، فكان نعيه اصدق واروع ما قيل في ابي شادي وشخصيته ، وكتب عبد المسيح حداد فصولا لمجلة الصداقة التي تظهر في القاهرة عن ادباء المهاجر الامريكية ، فكتب عن ابي شادي فصلا رائعا ، يعد قطعة حية من ادب التراجم الرفيعة .. وكان ابو شادي في حياته يكتب الينا عن الدسائس والخصومات التي تقع بين ادباء المهجر ، وعما احاطه به بعضهم من جفوة وحسد وحرب خفية ، ولكنه حين كان يكتب عن عبد المسيح حداد او عن جورج صيدح ، او عن الياس فرحات ، او عن نظير زيتون ، واشباه هذه الطبقة ، كان يكتب مثنيا منوها بالخلق العربي الاصيل ، والشيم الانسانية النبيلة .

وفي صيف عام ١٩٦٠ زارنا عبد المسيح حداد في القاهرة زيارة قصيرة ، كانت يوما او اياما قلائل ، وقابلته مع الاديبين الكبيرين الصديقين وديع فلسطين ومحمد عبد الغني حسن ، فبهرت بعظمة الرجل وشخصيته ووقاره وتواضعه وانسانيته .. وحدثنا عن كثير من ذكرياته ، وعن ابنه جرير ونبوغه في عالم الابتكار العلمي في امريكا ، وعن ادباء المهجر ، وعن ابي شادي ، وعن زيارته لسوريا وطنه الحبيب ، ولمسقط راسه حمص ، حديثا رفاف المنى ، عذب اللهجة ، لا تزال حروفه ونبراته كأنها مرسومة في اذهاننا وقلوبنا .

ومضت الايام وعبد المسيح حداد يكتب الينا ونكتب اليه ، ويبلغ اخانا (وديعا) تحاياه الينا ، فنتقبلها بالفرح الروحي ، وبالحب العميق ، لهذا الاديب الجهير ، والعربي الكبير ، والصحفي الجليل ، الذي قضى حياته كفاحا من اجل عروبته وامته ..

ولد عبد المسيح حداد عام ١٨٩٠ ، وهاجر الى امريكا عام ١٩٠٧ بعد هجرة اخيه ندرة بعشر سنوات ، وفي عام ١٩١٢ اصدر جريدة السائح ، منبرا عربيا حرا رفيعا ، للعرب ولغة الضاد في ارض كولومبس الجديدة ، وفي عام ١٩٢١ اصدر الجزء الاول من كتابه « حكايات المهجر »، وفي عام ١٩٢٠ اسهم مع اخوانه ادباء المهجر في تأسيس الرابطة القلمية بنيويورك، وفي مكتب جريدته عقد الاجتماع الاول لتأسيسها ، وظلت السائح لسان صدق لادباء العرب عامة ولادباء المهجر خاصة ، وفي عام ١٩٤٩ زار عبد المسيح حداد دول امريكا الجنوبية زيارة سياحية ، فتلاقى باخوانه في العروبة في سان باولو وفي الارجنتين وشيلي وسواها من العواصم ، وقد لمس في هذه الزيارة مدى تقدير المهجريين لكفاحه وادبه ولشخصيته الرائدة النبيلة ، وفي عام ١٩٥٧ باع السائح لصاحب جريدة البيان ، وظل يكتب في فصوله الرائعة الممتعة .. وفي صيف عام ١٩٦٠ زار الجمهورية العربية المتحدة ، ونزل ضيفا عليها ، وكرمه



عبد المسيح حداد

الادباء في دمشق وحمص تكريما يليق بمكانته .. وقد طبع له في دمشق بعد ذلك كتاب عن هذه الرحلة ، بعنوان « انطباعات مغترب » ..

يا ابا جرير ... يا ايها الرائد المعلم لامته ... يا ايها العلم المفرد في عظمته ... يا بن حمص البارة ، وفتى سوريا الشقيقة ، ونسل العرب الميامين الامجاد ...

يا شيخ السائح ، وداعية الرابطة القلمية، وزميل جبران وميخائيل نعيمة وايليا ابي ماضي ، وصديق الخالدين من امثال ابي شادي ، والريحاني ، ونظير زيتون ، وجورج صيدح والياس فرحات ونسيب عريضة وميخائيل نعيمة، وغيرهم من الادباء الرواد الاعلام ..

ان تكن خليت مكانك ، وودعت اخوانك ، فما فارقت هذه الحياة ، حتى اليت رسالتك ، وارضيت أمتك ، واعليت بين الناس فكرتك ، فكرة الحب والوفاء والاخاء والايمان بالانسانية كلها وطنا للناس جميعا .

وسلام عليك في الخالدين ، والمجد لك ولذكراك العاطرة ما بقيت الحياة ، وعاشت الانسانية ، والى العروبة فيك العزاء ، ومن العربية وادبها وادبائها لكفاحك التقدير والوفاء ، وفي جوار المجاهدين مثواك ومأواك ، والله يكلؤك في هجرتك الثانية بحفظه ويرعاك ..

القاهرة — محمد عبد المنعم خفاجي

عبد المسيح حداد

بقلم محمد العيساوي الجمني

* * *

باسم تونس الادبية ، وباسم حملة الاقلام فيها ، والنخبة المثقفة المفكرة اقف امامكم – ايها السادة – لاساهم في تأبين فقيد العربية في المهاجر الاميركية ، ورسول لغة الضاد هناك المرحوم عبد المسيح حداد احد اعمدة « الرابطة القلمية » في دنيا المهجر العربية في العالم الجديد، والفقيد بدوره الادبي ساهم مساهمة مشكورة ومذكورة في ارساء قواعد الادب المهجري الذي اضحى بعد اكتماله صاحب خصائص واضحة ، وسمات بارزة ، وخطوط بيانية خاصة به ، ومقصورة عليه ، لا تتعداه الى غيره ولا تختلط بسواه .

اريد ان لا يأخذكم العجب في ان تقف تونس الادبية التي افتخر بالانتساب اليها ، وهي تحتل نقطة هامة من نقاط وطننا العربي الكبير . شاركت في الماضي – ولا زالت – بأفذاذ كبار حملوا رسالة الادب والنقد وفلسفة التاريخ. وفي المكتبة العربية القديمة شوامخ كالعمدة «لابن رشيق » و «زهر الآداب» للحصري القيرواني و «المقدمة» وتاريخها للعلامة ابن خلدون . وتونس الادبية الحديثة لها صلة كبرى ووثيقة بالادب المهجري المعطاء ، والرابطة القلمية على الخصوص . ولهذا تشعر تونس الادبية بهول الفاجعة المروعة في هذا الفقيد الادبي الكبير . وقد ظهر تأثير الادب المهجري في الادب العربي في تونس الجديدة بصورة واضحة وبارزة ، وبخصوبة ودسامة في «الشابي» (١٩٠٩ – ١٩٣٤ م) وهو شاعر الطبيعة والحرية في الدنيا العربية من الخليج الى المحيط الاطلسي كان الادب المهجري النبع الفوار المعطي بسخاء من لا يخاف الفقر ولا يخشى النفاد. ومن هذا البحر الزاخر بالجدة والتطور ارتوى الشابي – وهو اللهوف – حتى الامتلاء . وكان هذا الارتواء في مبدأ حياته الادبية حيث انطبع هذا الادب بكل ما فيه من حيوية دفاقة ، واحاسيس فياضة ومشاعر ملتهبة ، وصوفية حالمة ، وثورة عارمة على الاساليب العتيقة البالية ، ودعوة مخلصة الى خدمة العربية ، والتفاني في نشرها ، والدعوة اليها . ومن هنا بدأ الشابي في العطاء الادبي الجديد على جو تونس الادبية حينذاك . وظهر في شعر الشابي التبرم بالحياة ورفضها ، والثورة الجامحة على القديم المتعفن ، والتفتح على الطبيعة الساحرة الاخاذة ، والشاعرية الفياضة ، والطموح الذي لا يجد الى الحياة الجديدة ، والنفسية الثائرة على المجتمع الخامد غير المتحرك ، ولا المنفعل بما يجري حوله من تيارات وحركات فتمنى ان لو كان حطابا لكي يهوي بفأسه على هذه الجذوع التي تعيش عبثا على الحياة ولم تعش لها وتتجاوب معها .

ايها الشعب ليتني كنت حطابا فاهوي على الجذوع بفاسي

وكان تأثير جبران خليل جبران في الشابي اكثر وضوحا وابرز من بقية ادباء المهجر ومن هنا ظهرت كتب موازنة بين الشابي وجبران . فألف الاستاذ : خليفة التليسي الليبي كتابه المشهور « الشابي وجبران » وكدليل على تأثر الشابي بجبران خصوصا والادب المهجري عموما نورد بيتين في «السعادة» قالهما الشاعران بصرف النظر عن المفاضلة بينهما . فلقد قال جبران :

وما السعادة في الدنيا سوى شبح يرجى ، فان صار جسما مله البشر

وقال الشابي ناسجا على منوال جبران :

وما السعادة في الدنيا سوى حلم ناء تضحي له ايامها الامم

هذا مثال بسيط على تأثر تونس الادبية – والشابي من رؤوسها ان لم يكن قمتها على الاطلاق – وتونس بلادي متفتحة للجديد ، متهيئة للتفاعل مع الحديث ، وفيها استعداد كبير لمواكبة القافلة الادبية الرائدة . ويكفي ان تعرفوا – ايها السادة – انها تحتل المركز الثاني في القراءة الادبية بعد العراق ، حسب احصائيات دور النشر في لبنان رغم ما عمله الاستعمار من عزل لها عن الشرق العربي . ولكن الشعب الذي خلق طليقا كطيف الخيال ينطلق حرا يغترف من فيض الثقافة الحرة ، والفكر المبدع الخلاق ويؤثر ويتأثر تمشيا مع سنة الحياة، وعملا بمقتضى نواميس الوجود ، ومنطق التطور والتاريخ السائر الى الامام بدون توقف ولا خمول . فالحياة لا تبارك الا اهل الطموح .

ان فقيدنا – صاحب السائح – الاديب الصحفي والصحفي الاديب في دنيا المهاجر الاميركية قد قام بواجبه تجاه لغته العربية ووطنه العربي في الدنيا الجديدة البعيدة . وتحمل مسؤوليته كاملة غير منقوصة تجاه امته العربية – وقد افاض الاستاذ وديع فلسطين في ترجمة هذا الرائد المجدد – وقد اصبح الاستاذ وديع حجة في الادب المهجري وحياة رؤوسه وذلك لما يربطه بالجيل المؤسس من مراسلات ادبية ومقابلات شخصية معاساطين المهاجر الادبية . وهو في المجال لم يترك مقالا لقائل ، وقطعت جهيزة قول كل خطيب ، هذا بالنسبة ، ايها السادة ، لاتصال تونس الادبية « بالرابطة القلمية » في اميركا الشمالية .

وبقي علي ان احدثكم – باختصار – عن ارتباط تونس بالادب المهجري في اميركا الجنوبية او « بالعصبة الاندلسية » على التحديد في « سان بولو » وراس هذه المدرسة هو الشاعر القروي رشيد سليم الخوري ابن

قرية البربارة اللبنانية .. فقد جاء في مجلة « الندوة » التونسية العدد الرابع من السنة الرابعة ١٩٥٦ عنوان بصفحة ٢٩ : (بين تونس والبرازيل) وتحته خلاصة لرسالتين تبودلتا بين الشاعر القروي ، واديب عربي من تونس هو زميل للشابي ومؤلف كتاب « مع الشابي » وتبودلت الرسالتان بمناسبة اهداء الشاعر القروي « ديوانه » للاديب التونسي . ونأخذ من رسالة الاخير للقروي ما يأتي : « .. سوف يكون « ديوان الشاعر القروي » عندي من انفس الاعلاق وامن الذخائر ، اروي من منهله العذب ظمأ نفسي وظمأ تلاميذي واصدقائي الى الشعر الرفيع ، والقنهم ما فيه من آيات الوطنية والحماس للعروبة والوطن العربي الاكبر » ويقول عن الديوان : « تصفحته فاذا هو عالم من الآراء والمبادىء والافكار في تمجيد الوطن والحرية والعدل والحق ، واذا هو كون من الصور والرؤى والاخيلة والتعابير عن الجمال في كل مظاهره ، واذا هو دنيا من النار والنور ... »

هذه مقتطفات من رسالة الاديب التونسي . وقد رد عليها الشاعر القروي برسالة نقتطف منها ما يلي : « ... اتاني كتابك يرفل بالقشيب من حلل البلاغة مطرزة بعسجد البيان وكان سطوره اعراق نابعة بالشعور النبيل شفافة عن ماء الحياة مترقرقا صافيا نابعا من قلب عربي صادق الايمان وثيق العروة محصد الرأي ، قرأته لنخبة من اخواني اعضاء « العصبة الاندلسية » فرفعوا الحواجب أعجابا و « صنجوا » بالاكف اذا جازت هذه البدعة في التعبير ... واني لارجو ان اوفق الى نشر فقر منه تدل بالحجة الادبية المعربة والراي المشرق السديد ... »

والان وقد عرفتم — ايها السادة — صلة تونس وتأثرها بالادب المهجري في الاميركتين وتفاعلها معه ، وتأثرها به ، ومواكبتها له . رجائي الان ان لا يكون هناك تعجب من وقوف تونس الادبية الى جانبكم في تأبين علم من اعلام الادب العربي في المهاجر الاميركية البعيدة . ومن واجبي ان اؤكد لكم تأكيدا كاملا ومطلقا ان تونس الادبية لن تتأخر عن السير في الركب الثقافي العربي ، والقافلة الفكرية الرائدة ، فان تونس من العرب واليهم . ان اليوم الذي ستقوم فيه تونس بدورها البارز في الادب العربي آت لا ريب فيه اما تأثر تونس بحركة « ابوللو » الادبية في مصر واتصال الشابي بها وبمجلتها والمناقشات التي دارت فيها حول كتابه : « الخيال الشعري عند العرب » وكتابته مقدمة لديوان « ابي شادي » واعتزام الاخير على كتابة مقدمة « اغاني الحياة » ولكن الموت اختطف الشابي قبل ان يرى ديوانه مطبوعا ومتناولا في ايدي القراء في الشرق والمغرب . هذه النقطة الاخيرة فاعتقد انها من الشيوع بمكان كبير وسلام على صاحب « السائح » عبد المسيح حداد في هذه الذكرى .

القاهرة

محمد العيساوي الجمني

الى م ؟

●

أخشى الملامة في هواك فارجع
وأغالب الدمع الهتون وانزوي
وأسير في دربي ملعثمة الخطى
سحب تكاثف في مدارج مرتعي

هل تحسبني لن أعاود ما مضى
أأنا اثوب وفي الجوانح خافق
لا .. لم يراود طيف حبك خاطري
عبثا الملم ما تناثره الرؤى
أوهى البعاد تجلدي وتجرعت
يا قلب يا خفاق قد أضنيتني

ويهزني شوقي اليك فاهرع
في ركن مظلمة ترد وتمنع
وأهيم لا ادري الام المرجع
فالطرف مغض والضلوع تطلع

هل تحسبن طول التحامل يردع
تغشاه ذكرى من هواك فيخشع
ذكراك دائمة تهيج وتولع
من سالف النجوى وجنحي موجع
غصص النوى كبدي وعز المضجع
خفف وجيبك هل ندائي يشفع

دمشق

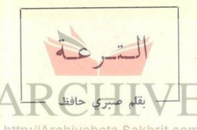
سلافة العامري

حينما صحا أهل قرية (....) ذات يوم ، وجدوا ان الترعة الوحيدة التي تمد القرية بالمياه قد جفت تماما ، وزحف القلق ، وتساءل الجميع في فزع عن سر هذا الجفاف المفاجيء ، فرغم انهم قد لاحظوا جميعا ان ماء الترعة قد شح بصورة واضحة في الايام الاخيرة ، الا ان واحدا منهم لم يخطر بباله ابدا ان هذا سوف يبلغ بحال من الاحوال حد الجفاف .

ومع ان الترعة كانت تجف مياهها تقريبا في فترات التحاريق الكثيرة ، الا انها لم تجف تماما ـ وبهذه الصورة ـ منذ زمن بعيد جدا . واذا علمنا ان القرية تقع في اخدود مستطيل بين مساحتين رمليتين واسعتين ، كان باستطاعتنا ان ندرك مدى الفزع الذي زحف على الجميع حينما علموا بجفاف الترعة ... شريان الحياة الوحيد في القرية .

لذلك انتشرت همهمات فزعة تسأل في رعب عن سر هذا الجفاف غير المنتظر ، خاصة وان الاحوال كانت توحي بأن المياه ستزداد ، وان الحالة ستتحسن... وجاءت اجابات شتى... البعض يزعم بأنه قد حدث خلل خطير استدعى اغلاق « الهدار » تماما . واخرون يؤكدون بحزم لا يقطر الماء بأن الترعة تصب في مصرف، والمصرف يقع في ارض الرجل الكبير، اذ اشترى كل الاراضي الواقعة على جانبيه ، وقد احتاج لهذه الارض فأمر بردم المصرف ليحوله الى طريق واسع يوصل الى قصره الجديد . كما أن هناك من يقولون بأن هذا الجفاف سببه عدم صلاحية الترعة في هذا الوقت ، خاصة وان وجودها في هذه الايام بالذات قد يؤدي الى فساد المزروعات التي لا تحتاج الى ماء ، وعلق الناس على هذا الخبر الذي كان يردده كثيرون بأن مياه الترعة قد تضر القصر قليلا ولكنها لن تضر الزرع ابدا . غير ان هناك من يقولون بأن السبب الحقيقي في علم الغيب ، وانه جفاف طارىء وما على القرية غير الانتظار وستوضح الايام كل شيء . ولكن هناك من يقول ايضا بأن مفتش الزراعة قد اكد ذات مرة بأن وجود الترعة في وسط البلد شيء ضار ، ولا بد من نقلها الى مكان بعيد وساعتها اقترح ان يكون هذا المكان قبلي البلد حيث اراضي الرجل الكبير الواسعة .

وتضاربت الاقوال ، وعم الذعر القرية ، وعلق في فضائها رعب مبهم ، واجتمع الرجال وتشاوروا في الامر ، وبرزت اقتراحات عديدة ، بعد اخذ ورد استقر الراي على ان يذهب وفد منهم الى ضابط النقطة الجديد ، وان كان صابر قد عارض هذا الاقتراح قائلا :



ـ هذا رجل لم نعرفه بعد ولن يحس بمشاكلنا .

ـ فرد احدهم : انه رجل طيب ، لقد نزل القرية وسلم علينا جميعا . وهذا شيء لم يفعله غيره .

ـ وقال اخر : الم يقل لنا ان اصله فلاح .

ـ فرد صابر : ولكنه هو ليس فلاحا .. انه مثل الرجل الاخر ، ولن يفعل لنا شيئا .

ـ فرد واحد : هذه اشاعة ... الم يخلصنا من اللصوص .

فضحك صابر بينما رد اخر :

ـ كما انه شاب .. وجديد .. والغربال الجديد له شدة .



وغمغم الجميع بالموافقة ، وارتدت نظرات صابر خائبة اليه .

*

قبل الظهر كان الوفد عائدا من النقطة مجرجرا وراءه الخيبة ، وما لبثت اخباره ان سرت في القرية بسرعة كما تسري النار في اعواد الحطب ... وتناقل الناس النبأ... فحينما دخلوا « النقطة » استقبلهم الضابط بترحاب شديد ، وتتابعت موجات سريعة من السلامات والضحكات فلكز احدهم صابر هامسا :

ـ ارأيت .

فأجاب صابر بضيق، وهو يتفرس نظرات الضابط الثعلبية :

ـ لم ار شيئا بعد .

قال الضابط بود ظاهر وابتسامة لزجة على شفتيه :

ـ خير ان شاء الله .. ! ؟

قال الشيخ علي وحبات المسبحة تنزلق من بين اصابعه في هدوء :

ـ الم يبلغك خبر الترعة ... ؟ !

فقال الضابط والابتسامة اللزجة ما زالت ملتصقة بشفتيه :

ـ بلغني

ـ وما العمل ؟

قالها اكثر من واحد وهو متشبث بخيوط الامل المرتعشة .

ـ لا شيء ... بلاد كثيرة تعيش بدون ترع ، وعموما سنحفر ترعة جديدة .

قال ذلك وقد انسحبت ابتسامة التودد اللزجة من على شفتيه ، ولكن الشيخ علي حبك العباءة حول جسمه، ثم نطق بحزم وقد سخنت حبات المسبحة تحت اصابعه ، واسرعت حركتها :

ـ بلدنا لا يمكن ان تعيش من غير هذه الترعة بالذات، انها تمر في وسط البلد وتروي جميع اراضيها ، ولا يمكن ان تحل اخرى محلها ، الناس نظموا احوالهم وبنوا السواقي على هذا الاساس .

قال الضابط وكأنه لم يسمع هذا

الكلام كله :

— بلاد كثيرة تعيش بدون ترع .

وهمس واحد بصوت لم ينطقه :

— سيذبل الزرع ويموت .

— ولكن بلدنا لا يمكن ان تعيش بدونها .

قالها الحاج محمود وهو يحدس النهاية ويتألم للفشل ، ولكن الضابط وقد فارقه هدوءه ، ودعكت اصابعه بشدة سلسلة مفاتيح في يده ، ورشقت عيناه الصورة الكبيرة المعلقة على الحائط امامه ، قال وقد اخشنت نبراته :

— تخريف ... قلت بلادا كثيرة تعيش بدونها . الجمت الكلمة الجميع ، وقال كثيرون بصوت لم يسمعه احد ... « غير معقول » ... غير ان سيد ابن الحاج حسين وهو شاب يتعلم في البندر قال :

— غير معقول .. فانا لا اعرف بلدا واحدا بدون ترعة ، بل هناك بلاد فيها اكثر من ترعة .

جاءه الرد قاصفا :

— كفى فلسفة ... انت ما زلت صغيرا .

ابتلع الاهانة وسكت ، وانعقد الحزم على جبهة الضابط ، وغزت الصرامة ملامحه ، فانسحب الوفد مجرجرا وراءه الخيبة ، واحس صابر بيد مجهولة تعتصر قلبه ، وبحائط اسود ضخم يقف امامه ، فقال بألم خال من التشفي :

— الم اقل لكم .

ردوا عليه في صوت خافت :

— وما العمل ؟!

لكنه بدلا من ان يتكلم شرق فابتلع ريقه ، واندلق الصمت بينهم وهم ينزلون سلم «النقطة» الحجري ، ومن عيونهم يسيل خوف مرعب ، وركل سيد طوبة بشدة ، والتقط الناس الجواب من العيون ، وانطوى كل على نفسه في صمت .

*

وفي المساء ، حينما اجتمع الصغار للعب في الجرن احسوا بشيء غريب يعوق انطلاقهم ، وكان الجو هو الاخر يوحي بذلك ، فقد اختفى القمر خلف سحابة كثيفة سمراء داكنة ، وانتشرت القتامة في الجو ، وقال طفل صغير بصوت اسيان مخنوق :

— الترعة نشفت .. والقمر مات .

اجابوا عليه :

— القمر لم يمت .. ولكنه اختفى وراء سحابة .

— ومن اين جاءت هذه السحابة؟!

سؤال اطلقه احدهم جزافا ، لكنهم جميعا رغم انعقاد جباههم بشدة ، احتاروا في البحث عن جواب له . وظلوا واجمين حتى امتصهم الصمت المخيف الذي امتص الجميع من قبل ، وحاول واحد ان يتكلم ولكنه احس بجفاف حلقه فسكت .

وفجأة انسكب بينهم توتر عنيف ، حينما لمحوا ابن الضابط قادما من بعيد ، كان متجها نحوهم ، وحينما اقترب لمح شيئا غريبا في عيونهم فجرى ، وجدوا انفسهم يجرون وراءه — رغم انهم كانوا يلعبون معه امس — وحينما ادركوه ، انهالوا عليه ضربا دون وعي ، ولما وقع على الارض وقد تجمد الذعر في عينيه ، صرخ احدهم :

— الولد مات ......!!

فجروا جميعا هاربين .

في الصباح ملأ الخبر القرية ، وعلموا ان الولد لم يمت ، ولكن قبض على اكثر من رجل ، واختفى بعضهم بطريقة مريبة ، فاجتمع نفر من القرية وقالوا في صوت واحد « ان هذا ظلم » وقاموا جميعا متجهين الى « النقطة » وهم لا يعرفون ماذا سيفعلون فلما لم يجدوا بها سوى خفير تجاهلوه ، وكسروا الباب ، واخرجوا الرجال .

حينما جاء الضابط بعد ان ضمد جراح ابنه ، هاج وماج ، واتصل بالرجل الكبير الذي ما ان سمع الخبر حتى احمر وجهه واحتقن الدم بعينيه ، وارغى وازبد ثم رفع سماعة التليفون وهو يهدر طالبا المأمور الذي كلم من فوقه ، وسار الخبر متسلقا اسلاك التليفونات ، وقافزا من مكتب الى اخر تاركا جهامته على الوجوه ، حتى وصل الى راس كبيرة جدا لم تخطر لأحد على بال .

وعند الظهر ، كانت جمال «الهجانة» تزحف على البلد كالموت ، والجميع يعرفون ماذا تعني « الهجانة » حينما تنزل بلدا اعزلا ، الظلام والخراب والموت ، ولا كلمة ، والعساكر السود لا يفهمون معنى الرحمة ، ولا يعرفون حتى اباهم ، والويل لمن ينطق حرفا .

*

ودب الشحوب في البلد ، وعراه الهزال ، وتساقطت نباتات كثيرة ، بل ماتت اشجار كبيرة لم يكن احد يتصور موتها ابدا ، واصاب الجفاف كل شيء ، واعلن عن نفسه في كل مكان ، حتى الارض ، اتسعت شقوقها وكأنها افواه لاهثة ضارعة الى السماء في امل مكتوم .

ومياه المكنة « المفيّن » التي دقها الشرقاوي في البلد لا تفيد ، وكذلك القناة النحيفة التي حفرتها الحكومة قبلي البلد لا تنفع هي الاخرى ، والترعة الجافة ما زالت وسط البلد يسكنها الخراب والجفاف والموت ، وعساكر « الهجانة » يلقون فيها بالقاذورات ، واهالي القرية ينظرون لها بحسرة وصمت كلما مروا بها في غدوهم ورواحهم .

ورغم حصار « الهجانة » الشديد جاءت اخبار تقول بأن المياه خلف « الهدار » تفور وانه ينوء بثقلها ، واكد احد الذين شاهدوا ذلك بأن الجميع هناك يشربون من هذه المياه الحلوة ... حتى الكلاب والعصافير .

انتشر الخبر في جميع انحاء القرية ، واستغرب الجميع وهم يرون زرعهم ذابلا ميتا ، وتساءل اكثرهم بصوت غير منطوق احيانا ومهموس احيانا اخرى : الى متى سنظل هكذا ؟

وجاءت الاوامر مشددة بأن على الاهالي جميعا ان يعملوا على ردم الترعة القديمة ، ولعب الاغراء دوره ،

ولوح بالاجور المرتفعة ، فتقدم نفر قليل للعمل في ردم الترعة ، ولكنهم لم يفوزوا بغير احتقار اهل القرية جميعا ، وتساءل اكثرهم باستنكار :

— واين هذه الترعة الجديدة ...

وهمس اخرون في حذر شجاع :

— سيأتي اليوم الذي ينكسر فيه « الهدار » ان لم ينفتح ... فلا داعي لردم الترعة . وقال البعض :

— الترعة لم يحفرها انسان ... فلا داعي لان يردمها احد .

ولكن الاوامر اكدت بأن مياه القناة الجديدة افضل ، وان كانت تجيء من فرع اخر ، كما اكدت انها صحية ، غير ان الاهالي جميعا ، وبعد ان احسوا الفارق الشديد بين حلاوة مياه الترعة الاصلية وعذوبتها ، وبين هذه المياه المالحة التي ليس لها اي طعم، لم يصدقوا حرفا مما قيل عن حلاوة مياه الترعة الجديدة وما اشيع حولها باسم الصحة، وهتف سيد ابن الحاج حسين الذي يتعلم في البندر :

— كل شيء يرتكب في هذا البلد باسم الصحة .

واحس الناس بمرارة عجزهم عن عمل شيء ، وجنود « الهجانة » في كل مكان . والصمت الاجوف الكئيب يحاصر القرية تماما ، والضيق والقرف يغلي في الصدور ولا يجد سوى العجز الابله على الوجوه . ولكن سرعان ما وجد هذا العجز متنفسا في العديد من النكات الحادة الساخرة التي بدأوا يطلقونهاحول هذا الموضوع، والتي كنت تدرك من حدتها ان وراء كل واحدة منها الف عقل جبار مفكر.

*

اخذت الايام تمر ، والجفاف يعلن عن نفسه في كل مكان وبشتى الصور، والصمت الاجوف الاسود الكئيب يفرض ذراعيه على القرية، والاصفرار يغزو كل شيء ، والشحوب يملأ الوجوه ، والهزال يرتع في كل مكان ، ونظرات الاسى تمتد بخوف في كل ناحية ولكنها ما تلبث ان تتراجع امام سحنات عساكر « الهجانة » القاسية ، وأمام الطنين الاجوف لكرابيجهم السوداء .

اخذت الايام تمر ، ولكن تواليها لم يعد الاشراق الى النفوس ، ومشى الجميع وكأنهم نيام ، وجثم كابوس رهيب فوق النفوس ، والاطفال الذين كانوا يملأون القرية صراخا ولعبا ومرحا بضحكاتهم الحلوة التي تفرش دروبها بالخضرة ، امتصهم الصمت وكأنهم كبروا فجأة ، وعاش في وجوههم هزال اصفر، وطال الصبر ، وسار الرجال برؤوس محنية .

غير ان القرية صحت فجأة ذات يوم ، على اشتباك رهيب بين صابر واحدى عساكر « الهجانة » وتناثرت طقطقة هذا الاشتباك في الجو ، فصاح واحد : الحقوا يا جدعان صابر سيقتل « الهجانة » ستقتله .

تجمع الناس حول المكان ، وحاول عساكر « الهجانة » ان يبددوا جمعهم بالرنين الاجوف لكرابيجهم السوداء . في اول الامر ، ولكن ذلك لم يجد ، فقد كانوا يتكاثرون بشكل غير عادي، واخذت جموعهم تنمو كان اخطبوطي غريب لا يصدق، ولم يفد في تبديدها حتى لسعات الكرابيج المتتالية ، مما اذهل عساكر « الهجانة » انفسهم ، فصاح أحدهم برعب :

— بسرعة ... بلغ الضابط .

وجرى واحد ناحية « النقطة » .. وتجمع كثيرون على صابر الذي كان يقاتل في استماتة عجيبة ازعجت اكثر من واحد . وازدادت جموع الاهالي كثافة ، ووقفوا مشدوهين وكأن شيئا ما يشل حركتهم ، وعنقد الصمت اسى ، وبحلق الجميع غير مصدقين ، ولكن ما لبث ان صاح احدهم : هذا ظلم ، كل هؤلاء على صابر ، ونحن واقفون كالنسوان .

وكأنما الحطب كان في انتظار الشرارة حتى يشتعل ، فاندفع الناس بوحشية ، ورقصت الشماريخ والفئوس ، وانتزع البعض كرابيج « الهجانة » منهم ، وحينما سقط اول واحد من عساكر « الهجانة » على الارض ، وسال دمه كما يسيل دم اي واحد منهم ، تبددت كل الحكايات الاسطورية التي كانوا ينشرونها في القرية حول بطولاتهم الخارقة ، وتمزقت كل هالات الرعب

واندفع الناس يقاتلون باستماتة ، وتبدد الخوف، حتىالنسوان والاطفال خرجوا يقاتلون هم الاخرون، ورقصت غطيان الاواني النحاسية ، وزغردت الشماريخ في الجو ، واننت الكرابيج وانتقل اكثرها الى ايدي الاهالي .

*

من بعيد ، اتى الضابط والرجل الكبير يصرخان ، فقابلتهما الجماهير وهي تجري دون وعي ، وكانت قوة خفية تسوقهم في الطريق الى «الهدار» ، ولمع رعب حقيقي في عين كل منهم ، واراد الضابط ان يتكلم ، وحاول الرجل الكبير ان ينطق ، غير ان الجماهير اجتاحتهما في طريقها الى « الهدار » ، ولم يخطر ببال واحد من الاهالي ابدا ، انه سوف يدوس يوما على راس الرجل الكبير ، ولكن هذا قد حدث ، ففي وسط دفء الناس ، تستطيع ان تصنع اي شيء.

بعد فترة كانت المياه تندفع في الترعة بغزارة ، وقد ساقت امامها كل البقايا والقاذورات ، وخرج النساء والاطفال والجميع .. يرشفون منها في استمتاع عذب ، والمياه تتدفق مجتاحة امامها الجفاف الذي كانت تشهق بقاياه شهقاتها الاخيرة ... والجميعيهرعون الى الترعة، والاخبار تسري بفرح في جميع انحاء القرية وتزغرد في كافة ربوعها ، واندفعت كائنات كثيرة لترتوي ، بل لقد جاء واحد من القرية المجاورة ليشرب منها . حتى الكلاب والعصافير ... يبدو انها كانت تنتظر بشوق هي الاخرى تدفق المياه ، ونزل الاطفال يلعبون في مياه الترعة ، وعاد اليهم كل مرحهم القديم ، وقذفت القرية بالجهامة مرة واحدة ، ورقصت الضحكات في كل مكان .

القاهرة **صبري حافظ**

التجديد في الشعر العراقي المعاصر

بقلم خضر عباس الصالحي

* * *

هل أعدو الحقيقة اذا قلت : ان الشعر أسمى ادوات التعبير ، وهو جم الفوائد ، كبير الاهمية ، ولذا فان العرب اولته عناية فائقة ، واتخذته خير وسيلة لرصد احداثها الهامة ، ووصف بطولاتها الرائعة، وتصوير حياتها الواقعية، ورسم مظاهر بيئاتها الحقيقية، وجعلته من أهم عوامل الدعاية والتفاخر والوعظ والتغني بالامجاد، والحث على الاستبسال في الحرب من اجل الحفاظ على كرامة الوطن ، وصيانة الديار ، ومقارعة عناصر الطغيان والتعسف والجور ... ! فكانت للشاعر منزلة مرموقة بين افراد قبيلته ، فهو لسان حالهم المعبّر عن قضاياهم العامة . والذائد عن معتقداتهم وتقاليدهم المتوارثة ، والناطق بما يجيش في صدورهم من رغائب وآمال واهداف .. !

ومما يجدر ذكره ، ان الشعر العربي مر بأدوار مختلفة كان خلالها اداة طيعة بيد الخلفاء والامراء ، يتمرغ على اعتابهم ، ويضلع في ركابهم ، ويحرق امامهم بخور التزلف والرياء والملق ... !

وكان الشاعر الحسن بن هانيء المعروف بأبي نؤاس اول من حمل لواء التجديد في دنيا الادب العربي فشن حملات عنيفة على اولئك الشعراء الذين يستهلون قصائدهم بالوقوف على الاطلال الدارسة ، وذرف الدموع الغزار عليها ، فقال في سخرية لاذعة :

لا جف دمع الذي يبكي على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو الى وتد
كم بين ناعت خمر في دساكرها ... وبين باك على نؤي ومنتقد

وقال في تهكم سافر :

قل لمن يبكي على رسم درس ... واقفا ما ضر لو كان جلس

وما ان انتهت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ ميلادية، حتى بدات حركة التجديد في الشعر العراقي المعاصر ...

وفي سنة ١٩٤٧ ميلادية طلع علينا الشاعر بدر شاكر السياب لاول مرة بمقطوعته الشعرية (هل كان حبا) والتي يقول فيها :

هل تسمين الذي ألقي هياما ؟
أم جنونا بالاماني ، أم غراما ؟
ما يكون الحب ؟ نوحا وابتساما
أم خفوق الاضلع الحرى ، اذا حان التلاقي
بين عينينا ... فاطرقت ، فرارا باشتياقي
عن سماء ليس تسقيني ، اذا ما
جئتها مستسقيا ، الا اواما

هل يكون الحب اني
بت عبدا للتمني
أم هو الحب اطراح الامنيات
والتقاء الثغر ، ونسيان الحياة
واختفاء العين في العين انتشاء
كانثيال عاد يفني في هدير
او كظل في غدير

ولم تلبث الشاعرة نازك الملائكة ان تبعتـه بقصيدتها (الكوليرا) والتي تقول فيها :

سكن الليل
اصغ الى وقع صدى الانات
في عمق الظلمة ، تحت الصمت ، على الاموات
صرخات تعلو ، تضطرب
حزن يتدفق ، يلتهب
يتعثر فيه صدى الاهات
في كل فؤاد غليان
في الكوخ الساكن احزان
في كل مكان روح تصرخ في الظلمات
في كل مكان يبكي صوت
هذا ما قد مزقه الموت
الموت الموت الموت
يا حزن النيل الصارخ مما فعل الموت

وهاتان القصيدتان هما من الشعر الحر ، ذلك الشعر القائم على التنويع في عدد التفعيلات ، وفي تجاوب القوافي تجاوبا غير مقيد بنظام ، والذي يعتبر التفعيلة هي الوحدة الموسيقية للقصيدة ، والنهج القديم يعتمد الوزن والقافية لابراز عنصر الموسيقى ، ويعتبر البيت هو الوحدة ... !

والشيء الذي يبدو غريبا بالنسبة لكل متتبع للحركة الشعرية ، انه ما ان شرع هذان الشاعران بنشر شعرهما الحر في الصحف والمجلات حتى راح الشباب من خريجي المدارس الثانوية ، والكثير من الشعراء المعاصرين يقتفون اثرهما في الخروج عن الوزن والقافية ، والانفلات من القوالب الشعرية المتداولة المألوفة ، فقد وجدوا في التقليد والاحتذاء بضاعة سهلة التداول ، وزعموا ان في التحرر من الاوزان والقوافي مجالا فسيحا في التعبير الصادق عن ادق الاختلاجات النفسية ، واعمق الانفعالات العاطفية ، ورأوا في الثورة على مفاهيم الشعر العربي القديم خلاصا له من القوالب اللفظية البالية ، والتراكيب الكلامية التقليدية ، وتذرعوا بحجة انقاذه من اغلال الجمود والتقريرية في التعبير ، وتغذيته بعناصر الحيـاة والقوة والتشبيه البارع ، والاخيلة المجنحة الطليقة ، والكلمات العذبة المتناسقة ، ومن اجل تلمس اغراض جديدة وتقليص محاولات الشعراء في اجترار معان بالية ، فطفت موجة من الاضطراب في النظم ، وازدحام الصور ، وانعدام ترابطها ، والمبالغة والتفخيم وتداعي الالفاظ والتهويمات الخيالية المفرطة ، والبهرجة الفارغة ، والغموض المفتعل المشحون بالالغاز والاحاجي والطلاسم ، والتسربل بالنثرية ... !

وهكذا بدات زمرة من شعراء الشباب تكتب بلا وعي هذا اللون من الاضطراب الموسيقي ، وركة التعابير، وطفقت

الروح التائهة

*

ورفـرف بالعـش طـير ولوع ... وطـيـر شـدا
ومال على الزهر غصن مطيـع ... ولبـى النـدا
وبين ضلوعي اضيئـت شموع ... لليـل بـدا
وطـاف بأفقـي نـداء وديـع ... ورن الصـدى
ترانـي اتيـه وحولي الجموع ... واقضي سدى ؟ !

فنجم تألق نحـو السمـاء ... ونجـم هـوى
ومـا زال نجمـي عبر الفضاء ... رفيـق النـوى
يسير عـلى منهـج مـن وفاء ... عليـه استـوى
ومـا ظـن أن بصيص الضياء ... سـراب ذوى
يطـول المسـير بـدرب الرجاء ... اذا مـا التوى ! !

الاسكندرية ... فاوري عبد الملك

الصحف والمجلات تنشر قصائد مفككة نثرية الاسلوب ، مهلهلة النسيج ، ضعيفة القالب ، متحللة من اكثر القيم الفنية للشعر العربي القديم ، وزاخرة بزخرف القول ، وبهرج الكلام وبضرب من الابهام لا معنى له ، وبكلمات متنافرة ، وجمل متضادة تحشر على غير رشاد وهدى ...!

ولم تلبث الاسواق الادبية ان غرقت بكراسات الشعر الحر الذي يمثل اسلوبا نثريا ساذجا افقد القصيدة العربية الكثير من روعتها ... !

ان اللجوء الى هذه المحاولات الغامضة في تبني الاشكال الشعرية الجديدة ذات التراكيب المجهدة بالاخيلة ، والمبالغة في عرض الصور ، وتهافت اللفظ ، وضبابية المعنى ، ونشاز الموسيقى ، لا يراد منه خدمة وتطوير الشعر العربي العمودي الذي رفع تراثنا الفكري الى مستوى الاداب العالمية ... !

وطالما ادعى اصحاب الانماط الجديدة في الشعر ، انهم عملوا على تمزيق رتابة النغم القديم ، والصياغة التقليدية الصرفة ، والتخلص من ضجيج وجلجلة الالفاظ الرنانة ، فازداد الشعر اتساعا ومدى وعمقا ... !

ولا اجد حراجة في القول : بأن هذه الحركات الشعرية الجديدة تعتبر من الفنون الحديثة التي طرات على الشعر العربي المعاصر ، افقدته روحه الاصيلة ، وحشدت فيه الصور والاستعارات الغامضة المبهمة .

وليس من المنطق الصحيح الوقوف كعقبة كأداء امام اتساع نطاق حركة الشعر الحر كلون من الوان الادب ، ليثبت صلاحيته للبقاء ، ولكن يجب ان لا يكون انتشاره على حساب هدم اركان الاوزان الشعرية التي ورثناها من الاجداد ، والتي هي السبب في اضفاء الجمال الخلاب على شعرنا العربي ، واكسابه تلك الموسيقى الساحرة التي تهز المشاعر ، وتحرك العواطف ، وتدخل القلوب دون استئذان، والتي صعدت به الى سماء الخلود ... !

ان الحفاظ على فنية الاثر الادبي ، والاهتمام بالصياغة اللفظية المتلألئة ، والاشكال الجمالية ، والمضامين الانسانية الجديدة ، وتصوير مظاهر الحياة مع الولوج الى جوهر اعماقها ، من خصائص الشعر العربي المهمة وعناصره الاساسية ... !

ومهما تنوعت الاساليب ، وتباينت الطرق ، فسيبقى الشعر العمودي يلعب دوره الخطير الهام على مسرح الحياة الادبية ، وسيظل خالدا عبر الاجيال ... !

بغداد ... خضر عباس الصالحي



التنشئة الوطنية الانسانية

صدر عن وزارة الدفاع الوطني بلبنان ، قيادة الجيش ـ الاخراج والرسوم لاسماعيل شموط ـ ٥٤٦ صفحة ـ مطابع قرطباوي بعاليه لبنان

من حق لبنان عليَّ ، منذ ان اقترنت بالكاتبة وداد سكاكيني ، ان اكتب عنه واصنع من اجله شعرا ونثرا ، ودراسات ادبية واجتماعية ، وان امارس فنونه في التاريخ والحياة المعاصرة . فهو حبيب الى نفسي اثير عندي . طال ما حننت الى افيائه الفيح مستظلا بمظلاته الالهية التي صُنعت من افواف الصنوبر ، وقامت على سوق ابدية دقاق ، تطالع هبّات النسيم العليل في الاصباح والامساء ، على السفوح المنبسطة في لبنان الحبيب .

انني لاجيء اليوم ، قؤوما بذلك الحافز الذي تفيض به نفسي ، لأحدث قرائي في مجلتي العزيزة (الاديب) التيكتبت فيها منذ نشأتها حتىاليوم، واكاداذا مرشهر ولماارنيفيها، أعدنفسيفي مضيعةالفكروحيدامغلقالفؤاد.

لقد كان قادة البيزنطيين يعنون بتاليف الكتب الحربية في التوجيه المعنوي والسلاحي ، وفيهم الامبراطور « قسطنطين الرومي البورفيري » (Porphyrogénète) فالّف لأمته وجيشه كتابا سماه « الادارة والارادة » عني بالكلام عليه المستشرق الالماني كريمر (١) . فبيّن ما كان لهذه الكتب من التاثير في حياة البطولة الرومانية ، وما كانت تحتوي فصولها من التنظيم والتعليم في الحرب والسلم .

واذا انا في القرن العشرين ، تحت اضواء الحضارة الحديثة في الفكر والاختراع وتفتّح البصائر ، ارى الكتاب الجليل المسمى (التنشئة الوطنية الانسانية) الذي وُشّح صدره باهداء وسيم للرجل الاعظم الامير فؤاد الشّهابي ، ولقد مررت بجونية ذات ضحى من ربيع فائت امام منزله الرفيع ، فتاقت الروح ، وتشوفت النفس لاستجلاء طلعته البهية ، فاكتفيت منها بالرسم ألمُّ به باسما ، واقرأ على صفحته السمحة كل المروءات ، وقد مر الاله بيده عليه ، فافاض في ناصيته وجبهته السماحة والصفاء والابتسام . لقد وجدتني وانا اجول خلال هذا الكتاب النفيس ، بالنظر والفكر ، يجول معي القلب والشعور ، ويأخذ كل واحد من هذه الجوائل الخوافق قسطه من الوعي ، ونصيبه من الاعجاب ، وما شاء له الاعتبار من التقدير .

وكنت منذ عالجت الكلام على شعر الحرب في ادب العرب (٢) ارى العروبية متجلية المظهر والمخبر في امرين لا ثالث لهما ، وهما : البطولة في الحرب والكرم في السلم . فاذا بي اجد هذا الكتاب قد ضم بين صفتيه الفياضتين هاتين المروءتين العربيتين ، فجعل منهما قوام الحياة الوطنية في توجيه النشء ومطالب الانسانية .

ولئن كانت الانسانية تجتوى الحروب وهي نزعة حديثة ينادي بها الانسانيون في زماننا ، فانني لا ارى الاخذ بها لامتنا في غير تحوط ، فقد نؤتى من قبلها ، ونصاب باسمها البريء الجميل . وقد حرص هذا الكتاب على ان ينفخ في النشء العربي بلبنان روح الحماسة والبطولة والفداء ، وان يبني نفوسه بالود والصلاح والتقوى .

وناهيك بهذه الوزائع بانيا للامة ، ودريئة لها في حياتها الدائبة وغذائها الفكري .

لقد وجدت هذا الكتاب دستور امة تريد ان تبقى على الزمان ، ورسالة نقية من الاوشاب تصلح لبناء وطن متكامل ، وانجيلا دنيويا ، وكتاب تعبئة منطلقا بالمثل العليا . فالجندية فيه ليست باب ارتزاق يطرق حلقته انسان متكسب ، وانما هي رسالة يرفع مشعلها الجندي الهصور من اجل حمى الوطن والذياد عنه .

ثم يبتدرك الكتاب بما اراد فيه الجيش التنزيه عن النزعات الحزبية ، فانما هو من اجل الامة حارس للوطن ، ولكل مواطن حق في نصيب من حمايته ، فاذا مال الى كفة حزب ، حرم المواطنين الاخرين حقهم فيه .

ثم يزرع الكتاب في الاسر مراميه وتعاليمه في اقامة الاسرة على اسمى الاخلاق التي تبني الامم ، كما يقول شاعر الخلود شوقي ، وهو ينتظم العلائق بين الكبير والصغير والادنى والاعلى ، فان نظام الحياة الحضارية في مجتمع القرن العشرين ينبغي ان يحوك العقل روابطه ، فان امة لا يحترم صغيرها كبيرها ، ولا يحدب الاعلى فيها على الادنى ، امة ليس فيها مقومات البقاء ، وما يكون نظام هذا العقد الا بسلك المحبة ووسيلة الوئام والتسامح الذي يتناول الرفاق والجيران ، والاخوة والاصدقاء .

ثم تجدك بين الصفحات التي تثير فيك الدهش امام جنود منطلقين الى ساحة القتال ، يحتثهم القضاء والقدر ، ويناديهم واجب الدفاع عن الحوزة ، يتسابقون الى الفتك بالاعداء ، وكأنهم الحمم المنسكبة بالحديد والنار .

ويشاء الكتاب ان يدخل حمى الفلسفة ، على مدرسة افلاطون فيقتبس من اقباسها في « الجمهورية » روح الفضائل الانسانية ، لكنه لا يلبث طويلا في تقشفه حتى يخضع الى فلسفات وضعية تموج فيها روح اغستقونت وفلاسفة العصر الحديث الذين يحورون المثل العليا الهيولية الى فوائد دنيوية تبني الرجال ، وتصنع الخلق في مصانع التدريب الحديث ، فليست الحرية ممارسة للانطلاق ، وانما هي وسيلة لحماية الجماعة من الفوضى ، وما كان العمل في شرائعه ومنتوجه الا قوام الضمير واس النجاح ، ثم يعود بك هذا السفر المرشد الى ارسطو الذي يقول : « العادة طبيعة ثانية » فيقوم ما اعوج من العادات ، ويريد ليستاصل خبثا ويبقي طيبها الذي يكفل السلامة لعمر الوطن منذ نشأته الاولى .

وهكذا تجدك من صفحة الى صفحة ، ومن باب الى باب كانك في معرض ابدي للعقل والفضائل ، وادب الدنيا والدين ، حتى يصل بك الى صفحة كتب في رأسها هذه الكلمات الثلاث التي ينبغي ان يحدق في كل منها كل عين عربية واعية اعطاها خالقها النور وهي : (اسباب أخفاق العرب) .

وكنت اقول بيني وبين نفسي :

ـ هذا كتاب لا تنقصه الصراحة ، ولكني اريد ان اسمعها مدوية ، واحس بجلبتها وجلجلتها .

فاذا بي اجدها تحت عيني وبين سمعي وقلبي ، صريحة في كلماتها ، غير مواربة في تعابيرها ، لا تدب اليها الاساليب السياسية في البيان

(١) روى « غوستاف شلومبرجه » في كتابه : (نيسيفور فوكاس امبراطور بيزنطة في القرن العاشر) هذه التواليف في ص ٢١١ طبعة باريس ١٨٩٠ .

(٢) كتابي (شعر الحرب في ادب العرب في العصرين الاموي والعباسي الى عهد سيف الدولة) طبع دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٢ .

المستور ، وكان طبيبا من مهرة الجراحين قد وقف على علة المعلول فوضع مباضعه مكان الداء العياء . سأترك لكل عربي سانحة العلم بهذا الكتاب ، ليقرأ فيه ، ثم يقف على الصفحة (٤٠٢) منه ليرى دلالات التهافت الذي منيت به الامة العربية ، فقد وردت هنالك الدلالات صريحة صارخة في غير مواربة ولا جمجمة ، ثم يندفع البحث بعد هذه الصفحة ليكون كتاب الامة العربية جميعها اذ يخرج من حمى لبنان الى ديار العروبة كافة والى العالم الاسلامي والدولي بعد العالم العربي .

وكما يكون في المسجد الجامع وفي الهيكل القدسي مكان المحراب في الاعماق والصدور ، كذلك فان هذا الكتاب السديد يؤدي بك التجوال فيه الى محرابه الاقدس وصدره الداخلي ، وهو كلامه على الدين .

ولا تحسب انه سيبقيك امام المذبح تسمع ترانيم الكهان والقسوس وهم نعارون في الاصباح والاسحار مرتلون اناشيد الانجيل على اصوات الارغن الخافتة ، تحت المصابيح الزرق الداكنة ، التي تنسكب اضواؤها على النفوس الحيرى الوالهة فتشيع فيها اشعة المسيح على السلام بقدسيته وروائع معجزاته ، لتغمرها بالهدوء والحنان واليقين ، وانما هو الى ذلك يجتاز بك وصيدا الى المسجد الجامع فاذا انت بين يدي المنبر ، وقد علاه الخطيب المسلم فجعل يشقشق بصوته الجاهر بذكر الله ، والتلاوات القرآنية والاحاديث المحمدية ثم يؤلف لك المسيحية بالاسلام ، فيذكرني بقول شوقي شاعر العصر ، وليته اخذ منه هذه الابيات :

فالفنا الصليب على الهلال .
واقبلنا كصف من عوالي ،
يشد السمهري السمهريا ،

وقد رحت ارى صورة الهلال الاخضر قد استند اليه الصليب الابيض. وقد سبتني ريشة المصور الموهوب الذي زخرف الكتاب فنقش طروسه ووشى عناوينه .

ثم يحدثك هذا الكتاب العظيم عن مقومات الاسلام واركانه الخمسة في الشهادة والصلاة والزكاة والصوم والحج ، حتى اذا فرغ من هذه الاركان الدينية التي جاء بها الاسلام مؤاخيا للمسيحية ، اذكرني بالجاحظ ابي عثمان عمرو بن بحر حين قال في كتاب الحيوان : وكانت لنا ببغداد سكة اصطفانوس وباب رومية وكان النصارى يشدون على اوساطهم الزنانير تنوس اطرافها بالصلبان ، وكانوا يباشرون عبادتهم في محبة وتكريم ، فقلت سقى الله ((عيسى ومحمد)) ما يسرهما اذ يلتقيان بلبنان الاشم على عناق وخلود من اجل شعب عربي عظيم حمل رسالة الحضارات من اعماق الدنيا ليؤديها الى الوجود حريصا على شرفها المنيع حتى يوم القيامة .

ويختتم الكتاب صفحاته وابوابه بالكلام على الفكرات الاجتماعية الحديثة لدى الدول الغربية وما تناول الشرق منها ، حتى يخرج الناظر فيه ، والدارس له ، والمتعلم به وكانه خلق خلقا جديدا .

انه كتاب الساعة العربية الحاسمة في لبنان والعالم العربي ، وكم اراه جديرا على مياسم خلوده وترادف بقائه ان يكون الكتاب العربي الاول الذي يرشح لينال جائزة نوبل في دنيا العرب اجمعين .

دمشق — **زكي المحاسني**

•

الزهاوي وديوانه المفقود

تاليف هلال ناجي ــ ٣٨٤ صفحة ــ حجم كبير ــ منشورات دار العرب للبستاني بالقاهرة ــ مطبعة نهضة مصر بالقاهرة

يقولون : ان مقياس نجاح العمل الادبي هو ان يضيف حصيلة جديدة للثقافة والفكر . فماذا اضاف هلال ناجي الى هذه الحصيلة بكتابه ((الزهاوي وديوانه المفقود)) : استطيع ان اقول انه قدم لنا دراسة مستوعبة شاملة وهذا عمل حميد ونافع ، فقد كتبت عن الزهاوي عشرات الابحاث والمؤلفات . وقد بدأ هذا حوالي عام ١٩١٢ وامتد خلال ستين عاما كاملة . فاذا جاء هلال ناجي اليوم فقدم دراسة مستقلة شاملة استوعبت كل الدراسات ولخصتها وراجعتها وصححت ما ورد فيها من اخطاء سواء في تواريخ حياة الشاعر او مؤلفاته او توقيعات شعره كان ذلك عملا جديرا بالتقدير ، فنحن اليوم نستطيع ان نقدم للقارىء المثقف وللباحث على السواء كتابا يضم دراسة حياة ودراسة شعر ومراجعة شاملة لشاعر شغل الدنيا اكثر من سبعين عاما .

كما اضاف هذا العمل الادبي ديوان الزهاوي المفقود ((النزعات)) الذي اعتقد ان دراسة الزهاوي لم تكن مستكملة بدونه والذي كشف عن جانب له اهميته في شعر الزهاوي وعقيدته ، فقد ظل الزهاوي في نظر الباحثين بين رأيين : رأي يرى انه ملحد ويستشهد بشعره الذي صور فيه شكوكه ، ورأي يراه مؤمنا ويستشهد لذلك بشعر له يصور ايمانه وقضية الايمان والشك ما تزال قصة كبرى في حياة المفكرين في الشرق ، اما ظهور ديوان النزعات لاول مرة ملحقا بدراسة هلال ناجي له ، فقد كشف عن حقيقة تاريخية كانت غامضة من قبل ، وهي ان ((الزهاوي)) شان كثير من المفكرين الاحرار : شك فترة ثم آمن وجمع صورتي فكره هذين في ديوان ((النزعات)) .

وقد كان الكثيرون يظنون ان هذا الديوان كله كفر وتجديف كما ذكر سلامة موسى عنه حين سماه ((نزعات الشيطان)) غير ان نصوص الديوان واسمه ايضا يكشفان عن انه يعطي صورة فكر الزهاوي في حالتيه (بين الشك واليقين) .

واستطاع هلال ناجي بذلك ان يكشف زيف ما نسب الى الزهاوي ــ وان يصل الى ان الزهاوي كتب شعره في الشك ايام غروره ((فلما استوى عقله ونضج فكره ظهر له الحق واستبان الرشد فكتب شعره في اليقين)) .

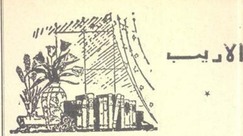
كما اضاف هلال ناجي بكتابه اشياء اخرى هامة :

ــ دراسة شاملة لحياة الزهاوي حقق فيها كل ما تواتر عن سيرته ولم يمنعه تقديره للشاعر من ان يكشف عن اخطائه ونقائصه فقد عني عناية كبرى بالكشف عن جانب ضعفه في مدح الانجليز واضطرابه بين مدح الخليفة العثماني وهجائه ، وهجائه ثوار العراق وانضمامه الى حزب يؤيد الانجليز .

وقد استطاع هلال ناجي ان يستقصي اخباره واثاره عند كثيرين ممن ارخوا له وكشف عن كثير من اخطاء الباحثين وفي مقدمتهم اسماعيل ادهم احمد الذي ادعى انه قرأ ديوانا لم يكن قد صدر الا بعد كتابة الدراسة بسنوات وكشف عن انه لم يقرأ شيئا من دواوين الزهاوي وانما كانت حصيلة في هذه الدراسة بعض قصائد الزهاوي في ((الرسالة)).

ــ كشف كتاب هلال ناجي اهتمام المستشرقين الواضح بدراسة الزهاوي . وهو امر لم يحدث بالنسبة لاحد من شعراء العالم العربي في هذه الفترة على هذا النحو الواضح كشوقي وحافظ او البارودي او الرصافي . مما يثير الشكوك في هذا التقدير الذي ربما كان محاولة هؤلاء الباحثين لاستغلال الجوانب المثيرة في شعر الزهاوي وضمها الى شعارات الدعوة التغريبية التي كانت تقوم اذ ذاك في العالم العربي في محاولة لاشاعة روح الشعوبية والالحاد والتحلل . وهو تيار ضخم اشترك فيه ــ مع الاسف ــ كثيرون بسوء نية واشترك فيه الزهاوي بحسن نية .

ــ قدم هلال ناجي دراسة تحليلية مستفيضة لشعر الزهاوي استغرقت حوالي ثلث كتابه البالغ ٣٨٦ صفحة تناول فيها مختلف جوانب هذا



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر
يناير ، كانون الثاني
تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية
للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

⊙

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي
في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي
٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار :

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى
في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

⊙

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد
الى اصحابها سواء نشرت أم لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

⊙

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ — المنزل ٢٢٥١٣٩
Tél. : Direc. : 223819 — Dle. : 225139

⊙

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول
البير اديب

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨
بيروت ـ لبنان

الشعر في الوانه الفلسفية والاجتماعية والسياسية وصلته بالمعري وتاثره بالرصافي وصراع الثنائيات في شعره كالعقل والقلب ، والنفس والجسد ، والشك واليقين .

هلال ناجي الشاعر وهلال ناجي الباحث : اعتقد ان لهلال ناجي شخصيتين واضحتين كل الوضوح ، هما شخصية الشاعر وشخصية الباحث . اما شخصية الشاعر فليس هذا مجالها . وان كانت لا تزال واضحة امامنا في خلال صفحات هذا الكتاب . فان الشاعر في هلال ناجي هو الذي جنح به الى احياء ذكرى الشعراء في الادب العراقي العربي المعاصر ، فمن قبل عني بدراسة الرصافي واصدر عنه كتابين : واحد في سيرته والاخر عن شعره الاشتراكي والقومي . ثم اراد ان يمضي في طريقه فعني عناية شاملة بدراسة اثار الزهاوي وما كتب عنه ونشر ديوانه المفقود « النزعات » لاول مرة وكان الزهاوي قد اودعه عام ١٩٢٤ لدى سلامة موسى الذي اعطاه للدكتور ابو شادي وتوفي هذا الاخير في امريكا وكاد ان يضيع هذا الاثر الادبي في اوراقه الكثيرة لولا الجهود التي بذلت لانقاذه .

وانني لأظن ان هلال ناجي سيواصل عمله ليس في مجال شعراء العرب في العراق وحدهم بل في الامة العربية كلها وآية ذلك دراسته التي يعدها الان عن شعر اليمن الحديث وشعرائهم . واماني لديه ان يعني بشاعر عربي مخل ربط بين العراق ومصر هو العملاق عبد المحسن الكاظمي ولن تغير عودة هلال ناجي الى العراق في موكب النصر عن هذا الفحل باذن الله ولن تشغله عن الدراسات الادبية التي كان قد بداها في العراق الحبيب ايضا قبل أن يقدم الى مصر التي التفت حوله بها قلوب المحبين لشخصه وادبه وشعره جميعا هذه القلوب التي لن تنساه وستظل تذكره وتحبه وتشعر تجاهه بفيض من الاعجاب والتقدير .

ويبدو هلال ناجي في دراساته النثرية في اهاب الباحث الناقد ، وهو جانب من جوانب شخصيته الادبية ، ولكنه ليس منفصلا تماما عن جانب الشاعر، فان حماسته وعاطفته واضحة كل الوضوح في هذه الدراسات . وان كنت اعتقد انه كان اقدر على دراسة شعر الزهاوي من النقاد الذين لم ينظموا الشعر . وهذه ظاهرة اعتقد انها لو درست دراسة وافية امكن أن تصبح حقيقة . فكل شعرائنا الذين عملوا في النقد والبحث كانوا اقدر من الادباء الذين لم ينظموا الشعر . وفي مقدمة هؤلاء شكري والمازني والعقاد وابي شادي وهلال ناجي والسحرتي وعبد القادر القط وعبد العزيز الدسوقي . اما منهج هلال ناجي في دراسة الزهاوي فهو ما يسمونه « منهج الاستيعاب الشامل » ربط فيه بين مشاعره وعواطفه وبين عقله كناقد وبين مقومات طبيعته وتكوينه كقومي عربي .

فالزهاوي شاعر وهلال شاعر . والزهاوي عراقي وهلال عراقي . ولقد كان هلال يمر (في بغداد) على قبر الزهاوي كل يوم في ذهابه وعودته ، متمثلا نفسه بقصة تاريخ طويل ماجد لشاعر اثار ثائرات وادار معارك، وخلق خصومات ، وكتب صفحات عريضة .

وهلال هنا في القاهرة مشوق الى بغداد ، تتراءى له صورها والنفس المحبة للوطن تود ان تؤدي له بعض الدين فهي تهدهد مشاعرها بأن تعيش في جوه واعلامه وعطره ، لقد خرج من بغداد في ظل مظالم وقسوة ظالم ، فلا بد ان يشغل المحامي الذي يحمل لواء قضية كبرى هي القومية العربية بقضية فرعية هي الدفاع عن رجل قد اصابه الظلم وانقسم الناس من اجله . والزهاوي كما هو فخر للعراق فهو فخر للامة العربية وقد تناوله اغلب الكتاب في دراساتهم على نحو يبدو فيه القصور والعجز عن الفهم الدقيق فكان لا بد أن يتقدم كاتب له المام التاريخ والبيئة والوطن والمام الشاعر والناقد جميعا ليكتب لنا هذا التحقيق الشامل .

وانا لنود ان يتاح لكل شعرائنا واعلامنا ومفكرينا مثل هذا العمل المستوعب الشامل الذي حققه هلال ناجي بالنسبة للزهاوي .

القاهرة — انور الجندي

•

١ ـ ضباب الحرمان

مجموعة شعرية ـ خضر عباس الصالحي ـ ١٤٨ صفحة ـ مطبعة المعارف ببغداد

لقد شغلت قضية الشعر في عصرنا الحاضر الكثيرين من الكتاب والادباء والمعنيين بدراسته حتى امتدت الى اقلام الشعراء انفسهم واخذت منهم وقتا طويلا يكرسونه بالكتابة والنقد على صفحات الجرائد والمجلات .. ومن الطبيعي ان ينقسم هؤلاء المعنيون على انفسهم في تقييم مفاهيمه ومقاييسه لتأثره بالتيارات الثقافية المعاصرة وثورة بعض المدارس الادبية الحديثة على الانماط التعبيرية البالية والاشكال اللفظية العقيمة التي لا تلائم الاحاسيس الانسانية المنطلقة .

من هذه المدارس « مدرسة شعراء المهجر » التي فتحت آفاقا جديدة امام الشعراء في البلاد العربية فتأثروا بها تأثيرا كبيرا ومنهم شاعرنا صاحب ديوان « ضباب الحرمان » الاستاذ خضر عباس الصالحي .

ان شعره مجموعة صور متحركة تنبض بالحياة وتزخر بالعاطفة والوجدان كما تشيع فيها روح الكآبة ودفقات الحزن على عادة غالبية الشعراء من الشباب .. استمع اليه من قصيدة له بعنوان الشعراء .

بعثرت لحن الهوى ريح الشقاء   والرؤى غامت باطيافي الوضاء
وخيالاتي العميقات الصدى   تتلاشى في المواعيد الظماء
وترانيمي الشقيات المنى   خفقت فيها اهتزازات العياء
أكلت زهر حياتي جذوة   بفم يقذف اعصار الفناء
واحتست خمر شبابي صبوة   فاح منها الحب في امسي المضاء

ان الشاعر في نظر الصالحي هبة للارض من كف السماء فهو يتساءل عن سبب اهمال هذه الهبة المباركة في عزلة ضاربة بين البؤس والدموع في حزن عميق يرتسم في آهاته حينما يعرف بأن اصحاب الاحاسيس في اوطانهم غرباء :

انما الشاعر في هذه الدنيا   هبة للارض عن كف السماء
فلماذا غمست أنغامه   بنجيع من دموع البؤساء
ولماذا صبغت آهاته   بدفيق من جراح الشهداء
وذوو الاحساس في اوطانهم   لم يكونوا غير قوم غرباء

الا ان صيحات الشاعر الملتهبة لم تقف عند هذا الحد طالما يشعر بالالم فكانت مدوية في الافاق في جرأة وصراحة :

لم انل منك ايها الشعر الا   نوبا لن تمر يوما ببالي
وينال الامال كل دعي   مترد في حمأة الاوحال
والرقيق الاحساس يحيا غريبا   في بلادي محطم الامال
طفح القلب بالصفاء وشعت   في عيوني براءة الاطفال
لم ازل اعشق الحياة واروي   قصص العاشقين للاجيال

وينتقل الشاعر في مكان اخر فيصور حياة الاديب وما يقاسيه هذا المخلوق المرهق من حرمان :

أفحتم على الاديب حياة   ليس فيها غير الاسى والغبار ؟
يطفيء الجوع فيه ومض نبوغ   شع كالشمس في ضمير النهار
ماج في مقلتيه بؤس شديد   وبخديه ذاب لون اصفرار
يصهر الفكر في براكين شعر   يتنزى كالرعد ، كالاعصار

ومن خلال هذه المصادفات المليئة بالمتاعب والاهات ، من خلال الاحاسيس المرهقة بالامال والالام لا ينسى الشاعر الوفاء لأمه الرؤوم بعدما تركته وحيدا يصارع الايام ويغالب صروف الدهر :

أمي الرؤوم اليك آهاتي   فيها تلبد جو مأساتي
وحدي مع الاحزان في فزع   اهتز في عمق انفعالاتي
واهيم ملتهب الشعور وبي   ظمأ الى ينبوع اناتي
تتعثر الشهقات في وتر   يرتج من عنف ارتعاشاتي
مثواك في دمعي ومن عبث   انسى مرارة موتك العاتي

واستمع اليه حين يخاطب ولده وقد خالطت افكاره ومضة من ومضات ابي العلاء في فلسفة الحياة والوجود :

ولدي يضرج نوحك الدامي   قلبا يرتل شجو الهامي
هي نزوعة رعناء طائشة   قذفت بروحك بين اوهامي
اني جنيت عليك في عمه   كيما تغص بكأس آلامي

والشاعر تغنى ببطولات الشعب العربي الثائر في الجزائر في قصائده الرائعة قال من قصيدة له بعنوان « ثورة الجزائر » :

شعب الجزائر نلت اليوم مكرمة   امست بها السن الاحرار تفتخر
اججتها ثورة شعواء ما برحت   مشبوبة النار لا تبقي ولا تذر
لتطلع الفجر مخمور الرؤى ألقا   فتنجلي ليلة باليأس تعتكر

وقال من قصيدة له بعنوان الى « عمان الباسلة » :

لك مجد يا عمان   بدم العرب يصان
ناله شعب عظيم   له بالعز افتتان
يتشظى فيه روح   وضمير وجنان

ومنها

هب للثورة شعب   عربي لا يلين
زاحفا عبر المنايا   للعدى لا يستكين
يطلع الفجر مشعا   برؤى نور اليقين
ويزيح الليل عنه   بيد الصبح المبين

ثم يقف الشاعر الصالحي يحيي الثورة الكبرى ثورة الشعب والجيش التي اطاحت بالاستعمار وحررت العراق من القيود والمعاهدات الجائرة فيقول :

جئت تموز حاملا خير ذكرى   تتنزى بالثورة الغراء
تلك بغداد كالعروس تجلت   وهي سكرى بخمرة الانداء
تنعم اليوم بالصفاء ويبدو   ثغرها الحلو دافق اللألاء
ان جيش العراق لاح كبدر   فتبددت غياهب الارزاء
وغدت قلعة الشقاة كطيف   وتوارت كالصورة الشوهاء
واذا الشعب يرتدي ثوب عز   غزلت خيطه ضحايا الفداء
غاسلا وصمة الهوان بسيل   من دماء الاحرار والشهداء
عشت جيش العراق للشعب ذخرا   ومنارا تنير درب الرخاء

هذا هو الشاعر خضر عباس الصالحي في مجموعته الشعرية «ضباب الحرمان » والمجموعة بحد ذاتها ديوان كامل تضم قصائد كثيرة لا يمكن الاتيان عليها في هذا التعريف الموجز وددت ان اعرج الى بعضها امثال « الى زوجتي » و « قيثارتي » و « زنابق الطبيعة » و « الزهرة الذابلة » و « الحب الراحل » و « في شواطيء سامراء » و « الى اختي جميلة » لولا ضيق المجال .

واخيرا فقد جاءت مجموعة « ضباب الحرمان » بارعة في التصوير عميقة في المعنى في اطار جميل جذاب حول صور متحركة تنبض بالحياة، تزخر بالعاطفة والوجدان كما قلنا .

٢ ـ الاشواق الحائرة

مجموعة شعرية ـ سلمان هادي الطعمة ـ ٨٨ صفحة ـ مطبعة المعارف ببغداد

قدم لهذه المجموعة الدكتور يوسف عز الدين بمقدمة تناول فيها قضية الشعر في عصرنا الحاضر على ضوء ما يشغل المعنيين بدراسته ـ كما اسلفت ـ تناول الدكتور عز الدين مشكلة الادباء الشباب وابتعادهم عن اجواء الادب الاصيلة وركونهم الى الشعر الحديث حيث جاء نتاجهم متسما بالسطحية بعدما هيمنت على اكثرهم العجمة في الخيال والتعبير.

في الحقيقة ان الالم مصدر الشعور ومتى ما تألم الانسان انبجست خواطره وتدفقت معبرة عن معانيه والشاعر عندما يتألم يتلون شعره بهذا المؤثر الذي يلف اعماقه ويشد وجدانه فتنث خواطره لتشد الاخرين ايضا للمشاركة الوجدانية ، فتجربة الشاعر هي خلاصة انفعالاته وهذا ما نلمسه لدى الشعراء الذين عبروا عن هذه التجربة بصدق ومهارة والذين يقترب منهم الشاعر سلمان هادي الطعمة بمجموعته الجديدة « اشواق حائرة » .

اول ما تطلعنا في هذه المجموعة «اخي في الجزائر» يقول فيها الشاعر .

سئمت القيود وعهد الوهن ... واجج عزمي لهيب الشجن
فغادرت عيش الركود الممل ... وايقظني الحدث المرتهن
فقمت مع الثائرين الاباة ... بأرض الجزائر ، ارض المحن
الى ثورة جلجلت في السماء ... ورن صداها بسمع الزمن

والشاعر حيال قضية فلسطين يكتنفه اضطراب موجع وحزن عميق فهو يصور نكبتها فجيعة ضجت لها الدنيا بالنداء وبقيت هذه النكبة جرحا عميقا في كل قلب عربي غيور رغم البطولات الحافلة بالشهداء .

يا فلسطين وما افجعها ... نكبة ضجت لها الدنيا نداءا
يا بلادا لم تزل حافلة ... بالبطولات تحيي الشهداء
كم اريق الدم في ساحاتها ... فجرت وديانها الخضر دماءا
سائل الاحرار عما شهدت ... « دير ياسين » رجالا ونساءا
وعن الابطال في سوح الوغى ... كيف هزوا في ذرى المجد لواءا

لقد واكب الشعراء في العراق احداث البلاد العربية فكانت حوادثها بارزة على اقلامهم وثمرات نتاجهم وبعض ما قدمنا من باقات مصداق لذلك ولو اتاح الله الفرصة لمن اراد استعراض امثال هذه النماذج في دواوين الشعراء لخرج بأسفار نفيسة تغذي المكتبة العربية بغرر القصائد الملتهبة وطنية واخلاصا وسموا في المعنى ونبلا في القصد وانها تصلح ان تكون ديوان حماسة القرن العشرين بلا شك .

اما الشعر الوجداني في هذه المجموعة فلا يقل روعة وحسنا استمع اليه من قصيدة له بعنوان « الفستان الوردي » :

مرت فالهب حسنها وجدي ... تختال في فستانها الوردي
والبسمة العذراء مشرقة ... في ثغرها المغمور بالشهد
وترجرج النهدين في دعة ... ونعومة الساقين والزند
والخصر يعطف في تبخترها ... كالغصن بين مباهج الورد

وقوله من قصيدة له بعنوان « نهدان » :

رق نسيم الشوق مذ اقبلت ... مسرعة تلهب انفاسيه
سمراء والزهو باعطافها ... والفتنة الساحرة الزاهيه
وصدرها الفتان لما بدا ... ايقظ احلامي واشراقيه

وقوله من قصيدته « شقراء » :

عيناك يا حبيبتي زهرتان ... يعبق منهما الشذا والحنان
وحسنك المشرق اسطورة ... تروي احاديث الصبايا الحسان

اما قصائد الشاعر الاخرى فهي تتعلق بخطراته التي دونها بين فترة واخرى كقصيدة « ذكريات نزهة » التي يقول فيها :

ها هنا في الروض في الاجواء ، والسحر المثير

في السفوح الخضر ، والاحلام ، والحب الطهور
وخرير الماء يلقي اللحن في سمع الغدير
يملأ القلب بأفراح حسان وسرور

وقصيدة « الاماني المخضبة » منها :

صدعت شبابي قبضة الالم — وتصبغت بيض المنى بدمي
وتعذر الصبر الجميل فلا — يسلو الفؤاد بنشوة النعم

وقصيدته التي بعنوان « احلام » منها :

شرع الفجر يزدهي ويواري — هيكل الليل في رفيف السناء
وسرت نسمة الصباح تحيي — زهرات الرياض بالانداء
واذا بالحياة تختال زهوا — بانطلاق ونشوة وبهاء

بالاضافة الى قصائده الاخرى طيوف الربيع وقلب طروب وعند الملتقى ومن ليالي طهران ودوامة اليأس ولقاء مع الربيع وحنين وبين الظلال ومطاف الاشواق وليل بغداد .

هذه هي القصائد التي تتعلق بخطرات الشاعر وذكرياته كما اسلفنا اما القصائد الاخرى فهي تتعلق بالرثاء . قال من قصيدته « مصرع الحسين » (ع) :

تحليت بالصارم الباتر — لردع قوى الحاكم الجائر
وسجلت في صفحات الخلود — سطورا من الامل الزاهر
وتسطع كالانجم الزاهيات — وتنفخ بالارج العاطر

وقصيدته « اسفا عليك » منها :

قذفتك امواج الفرات المزبد — عبر الفناء ، فيا له من مشهد
فانصاعت الحسرات تأكل مهجتي — حزنا لبهجة عمرك المتبدد

اما قصائد الرثاء الاخرى فهي ايه عميد الدين ولوعة القبل والقدسية الخالدة ودموع الشعر وفقيد العلم ويا راحلا بالامس ودموع الالم ودموع وعواطف وفقيد الاسلام .

وفي المجموعة قصيدتان واحدة بمناسبة مولد الامام علي والاخرى بمولد الامام الحسين عليهما السلام وقصيدة « تحية الوفد » الزراعي العراقي حينما زار بلد الشاعر كربلاء .

الكوت ـ العراق — كاظم محمد حسين

قانون العمل

تأليف الدكتور عبد الودود يحيي المدرس بكلية الحقوق بجامعة القاهرة (؟) صفحة ـ الطبعة (؟)

ظهرت في قانون العمل مؤلفات محدودة العدد ، بعضها الفه اساتذة جامعيون وذلك منذ ان ادرجت مادة قانون العمل في مقررات الدراسة في كليات الحقوق سنة ١٩٥٤ .

ويعد كتاب السيد الفاضل الدكتور عبد الودود يحيي المدرس بكلية الحقوق بجامعة القاهرة احدث الكتب في هذا المضمار .

وسمات الكتاب الايجاز مع الوضوح ، كما انه يمكن القارىء في اغلب موضوعاته من ان يطل على القانون مباشرة ، وليس من خلال آراء الفقهاء المتشعبة احيانا المقعدة احيانا اخرى .

وان اهم معنى في نظري يجب ان يلم به قارىء غير متخصص في القانون ما ان لفظ العامل كما يطلق على العامل بالمعنى المألوف ، فانه يطلق ايضا على الموظف والمستخدم . فقد سوى القانون بين الثلاثة من حيث تطبيق القانون عليهم « فالعمل اصبح وظيفة اجتماعية يرتبط القائمون بها بعقود عمل تتحد في آثارها القانونية . فالطبيب والمهندس والمدرس يعتبرون عمالا الى جانب التجار والخياط وصانع الاحذية . »

وفيما يلي ملاحظات بدت لي اثناء قراءة الكتاب :

١ ـ ورد في الباب التمهيدي ان قانون العمل يرجع ظهوره الى منتصف القرن الماضي ، وانا ارى تخصيص هذه العبارة باوربا فقط ، لان المعنى الظاهر للعبارة يجعلها تنطبق على كل الدول لانها وردت في الباب التمهيدي بينما التشريع العربي مثلا ظهر اولما ظهر سنة ١٩٠٩ .

٢ ـ ورد في ص ١٥ ان الطوائف تضع نظاما دقيقا للعمل فيها فتحرم العمل الليلي ، وكان الغرض من تحريم العمل الليلي منع حدوث الحرائق وليس حماية العمال .

وهذا الكلام محل نظر لان منع حدوث الحرائق فيه حماية للعامل بطريق غير مباشر لانه يصون مورد رزقه من التدمير .

٣ ـ ورد في البند الخاص بمؤتمر العمل الدولي ان وفد الدولة العضو في هيئة العمل الدولية يتكون من اربعة افراد اثنان يمثلان الحكومة ، وواحد يمثل العمال ، وواحد يمثل اصحاب الاعمال . (وان كلا من الممثلين الاربعة في مؤتمر العمل الدولي يكون له صوت خاص به) .

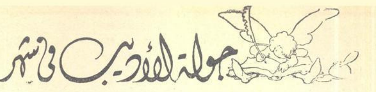
وصياغة العبارة التي بين القوسين غير صحيح من الناحية اللغوية لان معنى العبارة ان كل واحد من الاربعة له صوت بينما الصحيح ان الاربعة لهم اصوات ثلاثة فقط وهذا ظاهر من عبارة تالية : (ويجوز ان يصوت ممثلا الحكومة في جانب وممثل العمال في جانب آخر وممثل اصحاب الاعمال في جانب ثالث) .

٤ ـ ورد ص ٧٤ ان العمل قد يكون ايجابيا كما قد يكون سلبيا . ووقوف عارضة ازياء امام الجمهور كل يوم يعد عملا سلبيا . وهذا المثال في حاجة الى تعقيب . فكيف يكون العمل سلبيا اذا كانت ارادة العارضة قد اتجهت الى ارتداء الملابس والوقوف امام الجمهور ؟ انها بذلك تقوم بنشاط ايجابي ملموس .

وقد اعتبر الفقيه الالماني لوتمار وقوف الموديل امام الطلبة في مدرسة الفنون مجرد امتناع مقيد لحرية الشخص وما وجهناه من نقد الى الكلام الاول ينطبق ايضا على كلام لوتمار . وملخص هذا البند انه يوجد عمل وامتناع عن عمل فقط .

واخيرا فان ميزة هذا المؤلف ان فيه جهدا مبذولا ودلالة واضحة على قدرة المؤلف على التحصيل ثم اخراجه في ثوب يعبر عن شخصية المؤلف

القاهرة — احمد شفيق حلمي



« استاذ الجيل » احمد لطفي السيد

منذ ثلاثة اسابيع ، اغمض في القاهرة « استاذ الجيل » احمد لطفي السيد جفنيه ، بعد صراع مع السنين الطويلة عنيف . وبانطفاء شعلة هذا الانسان الكبير ، يفقد الفكر العربي شخصية بارزة واسعة الثقافة والاطلاع عميقة التفكير ، سليمة الاراء ، ومربيا ما تهاون في تادية الرسالة السامية والنبيلة ، وقوميا مناضلا حارب الاستعمار في بلاده وطالبه بالخروج منها ، وسياسيا وقف على امراض الدولة فعمل على استئصالها ، وصحفيا وموجها ...

يموت الرجالات الكبار في العالم ، ولكن ذكراهم باقية على مر الاجيال . وهكذا ذكرى « استاذ الجيل » .

فالكتب التي ترك ، وان كانت قليلة العدد ، وحدها كفيلة بتخليده . والنشاطات الاجتماعية التي ادى لمصر ، والخدمات الجليلة التي قام بها من اجل العروبة وابناء العروبة ... كل هذه ستنقش اسمه في اذهان الاجيال الطالعة ، وستدفعهم الى الرجوع الى آثاره لان فيها وجبات طعام دسمة ، وصالحة على مدار الايام المتعاقبة وفي كل المناسبات .

في عام ١٨٧٢ ابصر احمد لطفي السيد نور الحياة في بلدة البرقين في مصر ، وكان ابوه شيخ هذه البلدة. فدرس في مدرستها الابتدائية. ثم انتقل الى المنصورية ليتابع دروسا ثانوية . وفي عام ١٨٨٥ اتى الى القاهرة وحصل على البكالوريا . وبعدئذ التحق بمعهد الحقوق فيها . فتخرج منه بعد اربع سنوات . وبينما كان يحصل دروسه الحقوقية ، دخل المعترك الصحفي ، وحرر في جريدة «المؤيد» لصاحبها علي يوسف.

سافر الى اسطنبول في عام ١٨٩١ . وهناك اجتمع ببعض المصريين الذين كانوا منفيين عن مصر او اتوا الى بلاد الاناضول للراحة والاستجمام، امثال اسماعيل صدقي ، سعد زغلول ، علي يوسف .. وقد قدموه الى جمال الدين الافغاني ومحمد عبده . فلازمهما واخذ عنهما الدعوة الى الحرية الفكرية .. وعاد الى ارض الكنانة ليبدأ نشاطه في حقول السياسة والاصلاح والاجتماع ...

ثم سافر الى سويسرا ، بعد ان اعتزل الوظيفة (بعد تخرجه من معهد الحقوق عين قاضيا . فبقي في سلك القضاء طيلة خمسة اعوام) ومكث في ربوعها سنة واحدة حصل بعدها على الجنسية السويسرية . وهذه الجنسية ساعدته ، عندما عاد الى بلاده ، على التعرض في كتاباته السياسية لحكام القاهرة الذين غالوا في اعمالهم الاقطاعية ونكثوا بوعودهم ، وكان هجومه عليهم في غاية العنف . وقد حاولوا عبثا ان يخرسوا صوته وينتزعوا الريشة من بين انامله .

حاولوا ، بشتى الطرق ، ان يحطموا عزيمته ويغروه بالمال .

فكروا باعتقاله . ولكن الجنسية السويسرية ، التي رفض ان ينتزعها عنه ، حالت دون ذلك .

وفي عام ١٩٠٧ انشأ جريدة يومية اسماها « الجريدة » . فكانت لسان حال حزب الامة ، هذا الحزب الذي اسسه فريق من المصريين المطالبين بالسيادة الوطنية والاستقلال التام .

وكانت « الجريدة » تطل صباح كل يوم على القراء الذين كانوا يتهافتون على مطالعتها لانها كانت تحوي مقالات في الوطنية .. في التوجيه .. في الادب .. في السياسة .. في الاجتماع .. وكانت هذه المقالات تكتب باقلام متحررة وجريئة ، لم تأبه لمضايقات السلطة ، ولم تخف تهديداتها المتواصلة ... وبقيت هذه الجريدة تصدر حتى عام ١٩١٥ عندما اقفلت حكومة الانتداب الانكليزي كل الجرائد العربية في مصر.

والذي يرجع الى اعداد هذه الجريدة ، يجد ان مستواها من ناحية التحرير والتوجيه ، كان عاليا . مما ساعدها على ان تكون وتبقى مصدرا مهما من مصادر تاريخ الحركة القومية ، والدعوة لاستقلال مصر . والذي يود تاريخ الحركة القومية في ارض النيل في الربع الاول من هذا القرن لا بد من الرجوع الى مجموعة « الجريدة » . ففي الرجوع اليها فائدة لا اوسع .

وتدور الايام دورتها ، فيعين احمد لطفي السيد وزيرا للمعارف ثم مديرا لدار الكتب المصرية ورئيسا للمجمع اللغوي في القاهرة . وكان اول وطني يتولى ادارة دار الكتب ، هذه الدار التي انشئت سنة ١٨٧١ ، وتعاقبت على ادارتها فريق من كبار المستشرقين الالمان . وقد تولى ادارتها على مرتين : الاولى كانت من عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٢٤ ، والثانية في عام ١٩٢٩ . وفي الفترتين هذه عمل على تزويد رفوفها بمؤلفات تاريخية وشعرية وقصصية ومسرحية واجتماعية وسياسية وفنية ... كما انه حث طلبة المدارس على ارتياد دار الكتب والغرف من بحور كتبها الفنية بالفوائد ، بعد ان اصبحت المطالعة ضرورية في عصر اصبح فيه القلم والكتاب في طليعة دعائم الاوطان المتحررة والطامعة بعيش افضل .

ومثلما ساهم هذا الانسان في النهوض بدار الكتب المصرية ، فانه ساهم مساهمة جبارة في تركيز جامعة القاهرة والانطلاق بها . وقد عين اول مدير لها عند انتقالها من جامعة خاصة الى جامعة حكومية ، وذلك عام ١٩٢٥ . ولا عجب ان لقب بابي هذه الجامعة . لقد دافع عن حرمتها وحرية الرأي فيها . حتى انه قدم استقالته منها عندما قام، عام ١٩٣٠، رئيس الوزارة المصرية آنذاك ورئيس الحزب الدستوري اسماعيل صدقي باشا ، بعزل الدكتور طه حسين من عمدة كلية الاداب.

كان احمد لطفي السيد في ذات الوقت صحفيا قديرا ، واديبا مرهف الحس ، ومصلحا اجتماعيا واسع الادراك ، ومربيا غيورا . وقد تتلمذ عليه كبار رجالات التربية والفكر والاجتماع والفلسفة في مصر امثال : الدكتور طه حسين ، الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، منصور فهمي ، اسماعيل مظهر ، احمد امين ، محمد حسين هيكل ... وكان من العاملين في حقل الترجمة ، واشتهر بترجمته عن الفرنسية لبعض آثار ارسطو الفلسفية . فكان له « علم الاخلاق » و « علم الطبيعة » و « السياسة » . ولكنه لا يصح الركون الى صدق الترجمة وامانتها ، كما يقول المؤرخ الاستاذ يوسف اسعد داغر . فبين ترجمته لكتاب « السياسة » مثلا ، وترجمة الاب اوغسطينوس برباره التي صدرت في بيروت عام ١٩٥٦ فرق شاسع من حيث الدقة في التعبير والترجمة، ذلك ان الاب قد ترجم نص « السياسة » عن اليونانية مباشرة .

اما مؤلفاته فلم تكن وفيرة العدد . كما ذكرت سابقا . على انها وطدت له مكانة مرموقة في دنيا الادب بفضل ما كانت تنطوي عليه من ارشادات ونصائح في التعليم ، واراء متحررة في السياسة ، وبفضل الافكار العميقة المعاني التي ركزت عليها جمله الفلسفية وابحاثه في الاصلاح ... من هذه الكتب : « صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر بين عامي ١٩٠٧ و ١٩٠٩ » . « قبائل العرب في مصر » الجزء الاول . وقد جمع اسماعيل مظهر مقالات معلمه في

« الجريدة » ورتبها ، ثم اصدرها في كتب ثلاثة هي :

– « المنتخبات » ، وتحتوي على ابحاثه في التربية والتعليم ، وبعض محاضراته عن رسالة الجامعة والفلسفة في الازهر .

– « تاملات في الفلسفة والادب والاجتماع » .

– « البنات والابناء » .

فضلا عن انه ترك مكتبة تحتوي على ستة آلاف مؤلف ومجلد في السياسة والادب والشعر والفلسفة والتاريخ والاجتماع .

وبعد ، ماذا يبقى من احمد لطفي السيد ؟

يبقى منه انه حمل عن جدارة لقب « استاذ الجيل » ، وانه خاض ميادين الكفاح ، وشن حملات قاسية ومستمرة على الاستعمار . يبقى منه انه ترك للخزانة الفكرية العربية ابحاثا ومقالات ومؤلفات يغرف من بحورها بدافع من شوق وامتنان . ويبقى منه في النهاية ان شعلة النور التي اضاءها في مجاهل الجهل والفقر ... لن تنطفىء . انها ستبقى لتنير دروب الاجيال الصاعدة .

بيروت (الجمهور الجديد) ابراهيم عبده الخوري

•

بشر فارس : اقطاعية فكرية مستحدثة

كان من لزوميات الدكتور بشر فارس ان يطل على محدثه شيئا فشيئا بما يشبه امتلاء اللفظة بمعناها ، استدراجا للرمز الفائر فيه ، والذي يأبى ان يسفر عن وجهه الا في غرفة سوداء ، لتزيد الرغبة في الكشف عنـه .

والمهم الذي استوقفني في بشر فارس ان الرمز طبع فيه ، لا مذهب. فهو غيبي المزاج ، صعب الاختيار . وقد يكون ذلك من الاسباب التي جعلت ادبه دائم الانعطاف – وبنسب متفاوتة طبعا بحسب المراحل – الى الرمزية . وقد عبر عن ذلك عندما اكد أن الرمزية طبع ومسلك روح ، وانها ، عنده بالذات ، اقرب الى ملمح الصوفي .

جاء هذا التاكيد في حديث لي معه قبل سنوات . احببت ، يومها ، ان استنطقه رأيه في الرمزية ومصيرها في العالم العربي ، وما اذا كانت دخيلة ام غريبة عن التراث الفكري العربي . ولم ازل اذكر بعض ملاحظاته في هذا المجال . ومن جملة ما اذكر ، قوله : « الرمزية ظلت غريبة في مصر لان الانشاء الغالب هناك لا يزال تحت نير من قال : البيان هو الوضوح . واستنادا الى هذا المبدأ الهين المدرسي ، صاولني احمد حسن الزيات في كتابه « الدفاع عن الادب » ، وتنمر من تنمر للرمزية كيفما كانت وجهتها ، مثل عباس محمود العقاد ، وهؤلاء ذهبوا من رأي مستقر في النفس ، ومن ادوات كتابة لا تخلو من سذاجـة المطمئن ، على حين الادب الحق قلق ، وظنوا في ما ظنوا ان الرمزيـة ، الرمز بشيء الى شيء آخر . ولكنها كما اوضحت في توطئتي « لمفرق الطريق » تدوين اللوامع والبواده وابراز المضمر . ثم خلطوا الرمزيـة بصنوف المجاز . وما هي كذلك . ولو كانوا غرفوا من مناهل الادب ، الادب الصوفي العربي اسلم او تنصر ، لعلموا ان ادبنا غير محصور في مضيق الوضوح . ولو رجعوا الى اعجاز الايجاز وتنبهوا الـى الايـات المشتبهات لفطنوا ان الغموض والتلويح والايماء مـن براعـة الانشاء العربي الاصيل » .

وكان ينقص الدكتور بشر ان يستشهد بابي تمام – زعيم الايماء والتلميح في الشعر العربي القديم – ليصبح قوله حقيقة من حقائق « لا باليس » .

على ان الدكتور بشر فارس ، في ما خص شعره ، لم يكتـف من الرمزية بما قنع به نفر من شعرائنا اللبنانيين ، اذ ظلت الرمزيـة لديهم قريبة من اندفاق جبران خليل جبران ورموزه ، متشبثة ، من جهة ثانية ، بالرومنطية المستحدثة ، مكتفية من الرمزية باللفظ اكثر منها بالجو . هذا ، على الاقل ، بالنسبة للرمزيين الاول في لبنان . بينما سعى ، هو ، الى رمزية جو لتصبح اكثر من مذهب ... ويمضي. وفي مقدمة « مفرق الطريق » بالذات التي مر ذكرها ، اشارة صريحة الى التجريد والاتجاه الغيبي الموغل .

واذا كان الرمزيون قد استدرجوا الشعور للنطق عن طريق الايحاء ، على صناعة لا تقل في نظرهم اهمية عن الشعور ، فان بشر فارس تأنف مرات كثيرة في تصديه للرمز ، فاتعب الشعور من فرط التحليل وكمد لون اللفظ من كثرة استعمال المساحيق . ويتفاوت الاغراب في رموزه بين صورة واخرى ، فبينما يقول في قصيدته « الى زائرة » :

لـو كنـت ناصعـة الجبـين هيهـات تنفضني الزيـارة

ويلمح بذلك الى القصيدة التي زارته غير محررة من قيود العروض. ولذلك ، فعلت به فعل الحمى . وقد استبعار كلمة «ناصعة» ليصور الحالة التي اراد ان يعبر عنها . الا ان هذا الشرح لا يحول دون شروح اخرى ، ما دامت العلاقة ذاتية بين الشاعر وبين صوره ...

... بينما يفعل ذلك يعود ، مرات اخرى ، فيعتدل ، كقوله فـي مسرحية « مفرق الطريق » بلسان البطلة سميرة : « اذا غاب الذي كان يحس في نفسي وانطفأ الذي كان يشتعل والان اعيش في الثلج » ويقصد بذلك ان احساس النفس بازماتها تجمد فاصبحت تعيش على هامش وجودها ، باردة ، لا حرارة فيها . وهنا ينشب الصراع بين النفس في حاضرها المتجمد ، وبين توقها الدائم الى الحرارة واللهب.

اما الذي حدا بعض الادباء والشعراء الى نفي الشاعرية عن الدكتور بشر فارس فعائد الى الاعياء الذي يرافق الصورة احيانا في خروجها الى الوجود ، والى انعدام الجرس الموسيقي الذي يحد من تماوج النفس مع حركات القصيدة . وهذا عنصر اللألاء العاطفي يجب ان لا تنقطع حركة مده وجزره ما دام القارىء في جو القصيدة ، لانه بمثابة التيار الذي يربط شعور القارىء بشعور الكاتب ، ويخلق الطرب والنشوة .

وان خلو قصائد الدكتور بشر فارس من العنصر الايقاعي الذي يتولد عادة من موسيقى القافية كان يدني هذه القصائد احيانا كثيرة من النثر، الا اذا عشت جو القصيدة المعنوي لتلاحق بكثير من العناء الوحدة النغمية التي كان يخلخلها لفظة شاحبة ، كامدة ، واجواء غير ملونة .

لعل هذا التنافر بين اللفظ الذي اخمد قوة الايحاء وحرارته هو الذي جعل هؤلاء الادباء يتخذون من الدكتور فارس موقفا متحفظا .

ولكن ، لا ريب في ان بشر فارس استطاع في مجموع ادبه ان يكون وجها بجمالاته وغراباته وبشاعاته . ومهما قيل عن شعره ، يبقى بشر فارس احد الذين التزموا طريق الصعوبة في الادب العربي الحديث ودعوا اليه بحيث اصبح من المبشرين بالرمزية مقابل السهولة فيالادب العربي القديم . انما هذا الالتزام ورطه في تيار انفصالي فاغرق في توخي الصعوبة كما اغرق الاقدمون في توخي السهولة .

ولما سئل قبل سنوات في جلسة ضمته الى بعض الطلاب والاساتذة في الجامعة الاميركية ببيروت عن المعميات والطلاسم والتعقيدات التي يصر الشاعر الحديث ان يفرضها على القراء ، اجاب : « كان الشاعر القديم يدخل القارىء الى ارض ممهدة مهياة ، الى جنة ريانة عبقة ، فيها كل بهج رائق ، فيها ازاهر ورياحين ، فيها خضرة وفيها سواق، فيها اشجار وافياء ، فيها حـور ، فيهـا غـرام وصبابـة ، فيها كل هناء . اما اليوم فالشاعر الحديث يدخلنا الى قفر ، الى صحراء ، الى عناء ، الى وعورة كي نرى ما لا يرى وكي نسمع ما لا يسمع فنحس بلذة الظفر » .

اردت ان اقول ان هذا الافلات الى اقصى الغيب زج الشاعر في اقطاعية فكرية مستحدثة انكرهـا عليه الكثيرون وحفظها الادب العربي كمرحلة من مراحل مسيرته التاريخية الطويلة .

بيروت (النهار) فائق رجي